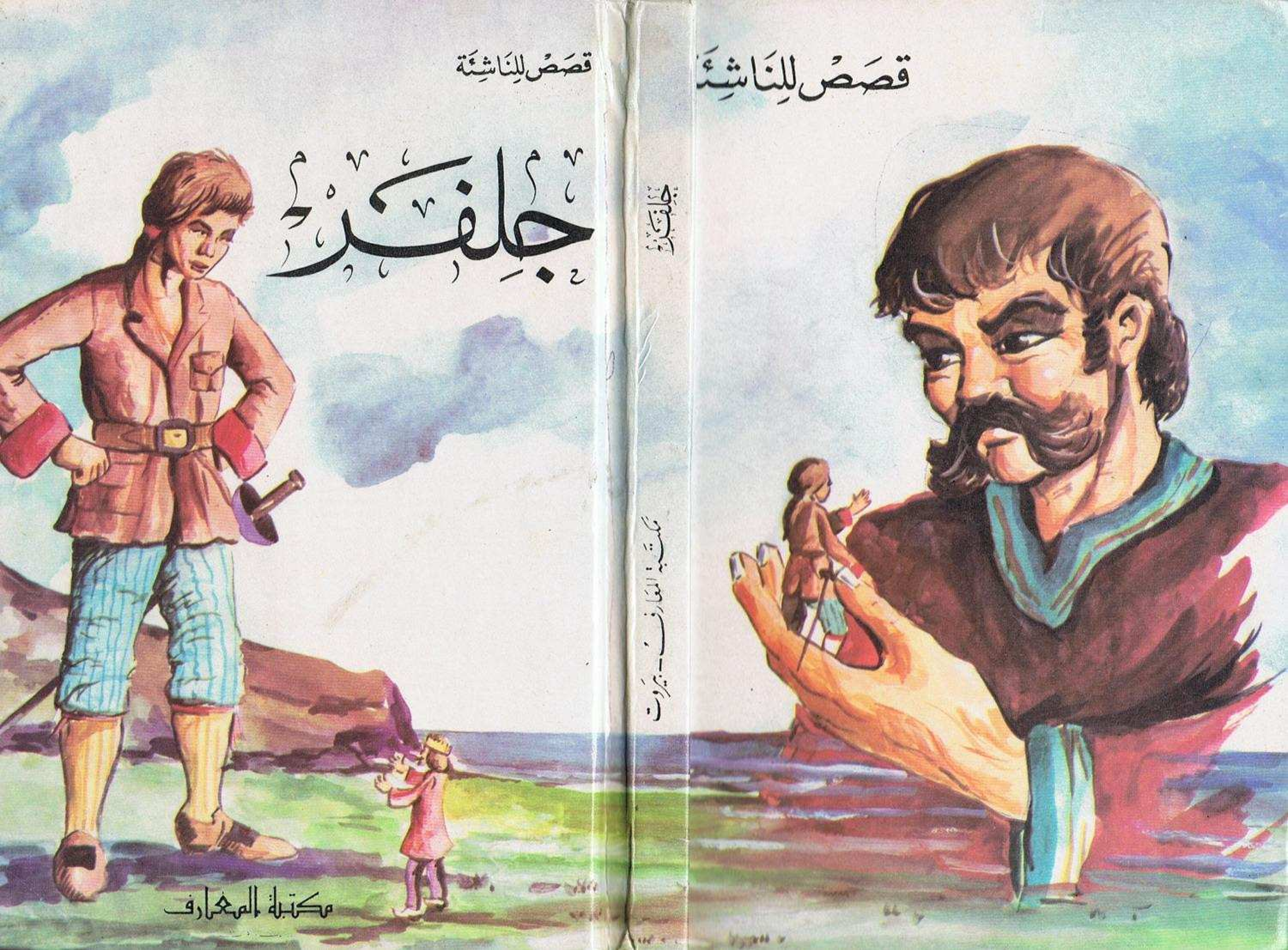

قصص للناشئة
جلفر
جلفر
مكتبة المعارف - بيروت
قصص للناشئة
جلفر
مكتبة المعارف

قصص للناشئة



جوناثان سويفت

مكتبة المعارف

مكتبة المعارف
شارع الامير امين
بيروت
ص.ب ١٧٦١- ١١



جلفر مع فارس من ليليبوت

قصص للناشئة

صدر منها :

- أليس في بلاد العجائب
- روبنسن كروزو
- تاجر البندقية
- جلفر
- جزيرة الكنز
- قصة مدينتين
- تاراس بولبا بطل القوزاق
- مرتفعات ويتر رنغ

١

جزيرة ليليبوت

كان لوالدي مِلكية صغيرة في نوتنجهامشَيرَ ،وكنت ثالث ابنائه الخمسة . فبعث بي الى كمبردج وانا في الرابعة عشرة من عمـــري ، حيث أقمت ثلاث سنوات ، انكببت خلالها على تحصيل العلم . لكن كُلفة إنفاقي على نفسي كانت كبيرة جداً بالقياس الى مثل هذا النجاح المحـدّد . لذا عملت كمتمرّنٍ لدى جرّاح شهير في لندن مدة أربع سنوات . وعندما تركته ذهبت الى عند والدي ، حيث ، حصلت على أربعين جنيهاً من عمّي « جون » وبعض الأقارب الآخرين . كما نِلت وعـداً بالحصول على ثلاثين جنيهاً في السنة ، لكي أنفق على نفسي في «لايدن» . وهناك درست الفيزياء لمدة سنتين وسبعة أشهر ، وأنا أعلم أن دراستي هذه ستكون مفيدة

في الرحلات الطويلة .

وفور عودتي من لايدن زُكّيتُ لوظيفة طبيب جرّاح على السفينة « السنونو » ، وقبطانها الكابتن ابراهام بانيل. وقد واصلت العمل معه لمدة ثلاث سنوات ونصف، قام أثناءها برحلةٍ أو رحلتين الى المشرق،وبعض الأجزاء الأخرى من العالم . وعندما عدت من هذه الرحلات قرّرت ان أستقر في لندن ، فاستأجرتُ شقة في بناية صغيرة تقع في الحي اليهودي الحقير . وبعد ان أشيرَ عليَّ ان أغير وضعي ، تزوجت من الآنسة بورتن ، الأبنة الثانية للمستر بورتن ، الذي يملك محلاً لبيع الألبسة الجاهزة في شارع نيو – جايت . وقد قبضت منه مبلغ أربعمئة جنيه كبائنة لابنته

لكن ضآلة عدد أصدقائي جعل عملي يبدأ في التراجع . ومن أجل ذلك تباحثت في الأمر مع زوجتي ، وقرّرت ان أعود الى البحر مرة أخرى . ولمدة ست سنوات متواصلة ، عملت كطبيب جراح على ظهر سفينتين على التوالي ، وقمت بعدد من الرحلات الى جُزر الهند

الشرقية والغربية ، حصلت منها على ثروة إضافية .

لم تكن آخر رحلة من هذه الرحلات ناجحة تماماً ، فازداد مَلَلي من البحر ، وقررت البقاء في البيت مع زوجتي وعائلتي . فنقلت محل سكني الى « وابينج » على أمل أن أحصل على عمل بين البحّارة . لكن ذلك لم يأتِ بأية فائدة تذكَر . وبعد انتظارٍ دام ثلاث سنوات ، وافقت على عرض مُغْرٍ تقدم به الكابتن « وليام برتشارد » ربان سفينة « العندليب » ، الذي كان يستعد للقيام برحلة الى البحار الجنوبية . وهكذا .. أبحرنا من بريستول في اليوم الرابع من ايار سنة ١٦٩٩ م .

كانت رحلتنا فى البدء مواتية جداً . ولكن ، وفيما نحن في طريقنا الى جُزر الهند الشرقية ، هبت علينا عاصفة هوجاء حادت بالسفينة عن خط سيرها ودفعتها نحو جزيرة « فان ديمن » . هناك وجدنا أنفسنا الى الجنوب من خط العرض المناسب . كان اثنا عشر بحاراً قد ماتوا من جرّاء العمل المفرط والطعام السيّء ، فيما أصبح الباقون في حالة شديدة من الضعف .

وفي الخامس من نوفمبر – وهو وقت بدءِ فصل الصيف في الكرة الجنوبي – كان الطقس غائماً . وفجأة لمح البحارة صخرة على بعد نصف فرسخ من السفينة . فحاولنا تحويلها عنها ، ولكن الرياح العاتية دفعت السفينة مباشرة فوق الصخرة ، ثم شطرَتها نصفَين .

قمت مع خمسة من البحارة بإنزال قارب الى البحر ، ثم حاولنا الابتعاد عن السفينة والصخرة ، فأخذنا نجدّف مسافة ثلاثة فراسخ تقريبا . وهنا أصبحنا عاجزين عن مواصلة العمل ، فوضعنا أنفسنا تحت رحمة الأمواج . وفي حوالي نصف ساعة ، انقلب القارب بنا على أثر هبة ريحٍ شمالية .

تُرى ماذا حلّ برفاقي الذين كانوا في القارب ، أو البحّارة الآخرين الذين تمكنوا من النجاة بعد اصطدام السفينة ؟ لست أدري ، لكنني أعتقد أنهم فُقدوا .

وهكذا .. وجدتُ نفسي وحيداً تتلاعب بي أمواج البحر ، فأخذت أسبح . وكثيراً ما كنت أتوقف لأتحسّس قعر البحر برِجلي ، لكني لم أكن أجد سوى الفراغ . وظل الحالُ كذلك حتى أصبحت غير قادر على

مواصلة النضال . وفجاة ، شعرت بشيءٍ يلامس رِجلي وشعرت بانني أصبحت أسيرُ بدلاً من أن أسبح.

كانت العاصفة قد هدأت آنذاك ، مما مكّنني من السير مسافة ميل تقريباً قبل ان أصل الى الشاطيء . وكان الوقت عندئذ ، حسب تقديري ، حوالي الساعة الثامنة مساء .

واصلت سيري نصف ميل آخر باتجاه الداخل ، ولكني لم أتمكَن من رؤية أية اشارة تدل على وجود مساكن أو أناس هناك . وحيث انني كنت في حالة ضعف شديد ، بسبب المشقّات التي واجهتني منذ نزولي من السفينة ، وبفعلِ حرارة الشمس المحرقة – فقد شعرت أنني بأمسّ الحاجة الى النوم والراحة .

استلقيت فوق الحشائش القصيرة ، وما لبثتُ ان استغرقت في نوم عميق . وعندما استيقظت ، كان ضوء النهار قد بزغ . وحاولت النهوض .. لكني وجدت نفسي عاجزاً عن ذلك . كنت مستلقياً على ظهري أثناء نومي ، وهاأنذا الآن أجد قدميّ وذراعيّ مقيدةً الى الأرض على جانبي . أما شعري الطويل الكثيف فقد

كان مربوطاً بنفس الطريقة .

وبالاضافة الى ذلك شعرت بالقيود تلفُّ جسمي كلّه حتى الفخذَين . كان كل ما أستطيع عمله في حالتي هذه هو النظر إلى أعلى . وكانت حرارة الشمس تزداد حدّة ، وأخذ نورها يؤذي عينيّ . . فحاولت ان أغمضها . وفي هذه اللحظة ، سمعت صوتاً من حولي غير أن وضعي آنذاك منعني من رؤية مصدر الصوت .

وبعد فترة ، أحسست بجسم يسير فوق قدمي !! وأخذ يتقدم فوق جسمي برفق حتى وصل أعلى صدري ، وبعدها الى أسفل ذقني . وجّهت نظري الى أسفل ، حسبما سمح لي وضعي الذي كنت فيه ، فتبيّنت أن ما كان يسير فوق جسمي هو مخلوقٌ بشريّ ، لا يتجاوز طوله ستة إنشات . وكان معه قوس ونشاب ، بينما كانت جُعْبة للسهام على ظهره . وفي نفس الوقت شعرت ان هناك ما لا يقل عن الأربعين من هذه المخلوقات تسير خلفه .

انتابتني دهشة شديدة من هذا المنظر ، فأخذت أصرخ بأعلى صوتي ، مما جعلهم يفرّون مذعورين .

وقد أصيب بعضهم بجروح ، كما علمت فيما بعد ، نتيجة سقوطهم الى الأرض فيما كانوا يقفزون من جوانبي .

ومهما يكن ، فإنهم ما لبثوا ان عادوا بسرعة فتقدَّم أحدهُم الى المدى الذي جعله يظفر برؤية واضحة لوجهي ، ثم رفع يديه وعينَيه معبِّراً بهما عن إعجابه ، ثم صرخ بصوت واضح مرتفع قائلاً « هيكناه ديجول » . وردد الآخرون هذه الكلمات مرات عديدة . . لكني لم أفهم شيئاً مما كانوا يرددونه . لقد كانت لغةً عجيبة لم أسمع بمثلها من قبل . فظللتُ مستلقياً طوال الوقت دون ان أبدي اية حركة . لقد كان كل ما أراه أمامي الآن شيئاً جديداً لم أُكن أحلم برؤيته أبداً .

هذه المخلوقات البشرية التي لايتجاوز طول الواحد منها ستة انشات ، من هي ؟ كيف وُجدت ؟ والأهم من ذلك : أين أنا الآن ؟

أخذت أكافح محاولاً كسر قيودي . وحالفني الحظ وتمكنت من تقطيع الحبال ونزْع الأوتاد التي كانت تقيد حركة ذراعي الأيسر . ثم إنني بجذبة قوية سبَّبَتْ لي آلاماً مبرحة ، تمكنتُ من إرخاء القيود التي

كانت تقيد شعري من ناحية اليسار ، وإلى حد
جعلني قادراً على إدارة رأسي قَدر إنشَين الى جهة اليمين.
ومرة أخرى ، عادت تلك المخلوقات الى الفرار ،
قبل ان أتمكن من إمساك أحدهم . واذ ذاك سمعت
صرخة عظيمة بلكنة ثاقبة . وحالما توقفت هذه الصرخة،
عاد أحدهم الى الصراخ بصوت عالٍ وهو يردد هذه
الكلمات : « تولجو فوباك ». وفي الحال أخذَت السهام
تتساقط فوق يدي اليسرى . وقد شعرت بوخزاتها
وكانها إبَر .

وفي نفس الوقت ، كانوا يطلقون سهامهم في الفضاء
مثلما نطلق ، نحن في أوروبا ، القنابل . وقد شعرت ان
الكثير منها ، سقط على جسمي ، حسبما كنت أعتقد
(مع أنني ما شعرت بها) ، فيما سقط البعض الآخر
على وجهي ، فسارعت وغطّيته بيدي اليسرى. وعندما
انتهى هذا الرشاش من السهام ،حاولت مرة أخرى ان
أحرر نفسي من القيود .. لكنهم عادوا الى اطلاق
موجة جديدة من سهامهم اكبر من التي اطلقوها في المرة
الأولى . كما حاول بعضهم هذه المرة تثبيتي في الأرض

بواسطة الرماح التي كانوا يحملونها . وإذْ كنت مرتدياً
سترة طويلة مصنوعة من جلد الجاموس ، فلم يتمكنوا
من ثقبها برماحهم .

ولما وجد هؤلاء الناس أنني أخلدتُ الى الهدوء ،
توقفوا عن اطلاق سهامهم . ولكني ، حسب الصوت
الذي كنت أسمعه ، قدّرت ان عددهم قد ازداد كثيراً ،
وانهم يقفون على بعد أربع ياردات مني . ولفترة تزيد
على الساعة ، ظلّت أصوات المطارق تتوالى الى جانب
أذني اليمنى ، وكان هناك اناساً يقومون باعمالهم .

وعندما أدرت رأسي الى تلك الناحية ، بالقدر
الذي سمحتْ به قيودي ، رأيت أن منصّة يبلغ ارتفاعها
قدماً ونصفاً ، قد أقيمت ، ووقف عليها أربعة من
الأهالي . ومن على هذه المنصة خاطبني شخص ، بدا
لي أنه ذو مركز مرموق ، بخطبة طويلة ، لم أفهم
شيئاً منها أبداً . وكان يتصرف وكانه مدّعٍ عام ! وقد
لاحظتُ اشاراتٍ كثيرة من التهديدات، وأخرى وعوداً،
بالرحمة ، والشفقة . فأجبته بلهجة مطيعة ، وانا أرفع
يدي اليسرى وعيني الى السماء ، وكانني أستشهدها .

وحيث أنني كنت في أشد حالات الجوع ـ إذ لم أكن قد تناولت طعاماً قبل مغادرتي السفينة بأربع ساعات ـ فقد عبّرت عن لهفتي الى الطعام ونفاذ صبري (ربما ضد قواعد الكرامة الصارمة) بوضع إصبعي مراتٍ كثيرة في فمي . وقد فهم الـ « هورجو » (هكذا كانوا يسمون السيد العظيم ، كما علمت فيما بعد) إشارتي هذه تماماً . فنزل عن المنصة وأمر بوضع السلالم على جانبيّ . وبعد ان تم ذلك ، تسلّقها ما يزيد عن المئة مخلوق وساروا باتجاه فمي ، وهم يحملون سلالاً مملوءة باللحم ، الذي كان قد أُرسل بأمر من الملك .

كان هناك لحوم أصناف عديدة من الحيوانات ، ولكني لم أتمكن من معرفة انواعها عن طريق التذوق . كان هناك الأكتاف ، والأقدام ، والظهور وكانت تبدو وكأنها قطع خروف ، مقطعة بشكل جيد ، ولكن القطعة منها كانت أصغر من جناحي قبّرة . وقد أكلتها بوضع قطعتين أو ثلاثٍ في اللقمة الواحدة ، بالإضافة الى ثلاثة أرغفة ، لايزيد حجم الواحد منها عن حجم رصاصة البندقية .

وفيما كنت أتناول طعامي ، كانوا يزوّدونني بالمزيد منه بأسرع ما يمكنهم ، وهم يُبدون تعجبهم ودهشتهم الشديدَين من حجمي ومن شهيتي !! عندها أشرت اليهم أنني بحاجة الى الماء ، فوجدوا ـ من طريقة أكلي ـ ان كمية قليلة لن تكفي . ولكونهم أناساً ساذجين الى حد بعيد ، فإنهم وبكل براعة رفعوا اكبر براميلهم ، ثم دحرجوه الى ناحية يدي ، وفتحوه لي : فشربت ما به من الماء جُرعة واحدة . وحسناً ما فعلت ، لأنه لم يكن يحتوي على اكثر من حوالي ثمن غالون من الماء . وبدا مذاقه لي مثل نبيذ برغاندي ، انما اكثر لذة وشهية . وأحضروا لي برميلاً آخر ، فشربت ما به من الماء كما في المرة السابقة ، ثم طلبت المزيد . ولكن .. لم يكن قد بقي منه شيء لديهم يقدّمونه إلي .

وبعد ان انتهيت من تمثيل هذه العجائب امامهم ، أخذوا يصرخون من الفرح ، ثم بدأوا يرقصون على صدري ، وهم يهتفون ، كما فعلوا من قبل : «هيكيناه ديجول » .

ولما انتهوا من رقصهم هذا ، أشاروا إلي أن

أرمي البرميلين الى الأرض ، بعد أن حذّروا الجماهير التي كانت تقف هناك بالابتعاد ، وهم يصرخـــون بصوت مرتفع بهذه الكلمات « هيكيناه ديجول » .

وانقضى بعض الوقت . ولمـــا وجدوا أنني توقفت عن طلب المزيد من اللحـم ، اذ بشخص من أعيانهم أوفده صاحب الجلالة الملك يتقدم مني . وبعد ان تسلق ، سعادتُه ، على كامل قدمي اليمني ، أخـذ يصعـد حتى وصل وجهي ، هو واثنا عشر شخصاً من بطانته . ثم إنه أبرز أوراق اعتماده المدموغة بالختم الملكي ، عن طريق تقريبها من عيني ، وبدأ حديثاً دام عشر دقائق ، دون ان تبـــدو عليه دلائل الغضب ، ولكن حديثه كان مشوباً بلهجة التصميم ، وكثيراً ما كان يشير بيده الى الأمام اثناء حديثه .

بالطبع لم أفهم كلمة واحدة مما قال .. ولكني ، علمت فيما بعد أنـــه كان يشير الى المكان الذي توجد فيـــه عاصمة المملكة ، وهو يبعد مسافة نصف ميل عن المكان الذي كنت فيـــه الآن ، وأن صاحب الجلالة قد أمر بوجوب نقلي إليها .

ويبدو أنه قـــد تمّ إعلام الملك ، بواسطة رسول خاص ، فور العثور عليّ راقداً فوق الحشائش على إثر نزولي الى البر ، فاجتمـــع الملك الى مستشاريه ، وأصدر أمره بوجوب تقييدي وتزويدي بكل ما يلزم من اللحم والشراب ، وتجهيز عربة لنقلي الى العاصمة .

لربما بدا هذا القرار جريئاً وخطيراً ، وأنا واثق من أن أي حاكم في أوروبا ، لن يجرؤ على اتخاذ مثل هذه الخطوة في مناسبة مشابهة . وعلى كل حال ، فقد كان قرار الملك او الامبراطور ، كما يسمّـونه، قراراً حكيماً يدل على الكرم . ولو افترضت ان هؤلاء الناس أرادوا القضاء علي برماحهم وسهامهم ، أثناء نومي ، لما كان بوسعهم ان ينجحوا ، إذ انني سأستيقظ عند أول سهم يصيبني . ولا بد لهـــذا العمل ان يثير غضبي ، فاتمكن من تقطيع الحبال التي كانوا قد قيدّوني بها ، وعندها ، لن يكون بوسعهم انتظار الرحمة مني .

ولقد اكتشفت ان هـــؤلاء الناس كانوا ذوي مستوى عالٍ في علم الرياضيات ، وقد وصلوا الى درجة كبيرة من الكمال في عـــلم الميكانيك ، بمؤازرة الملك

وتشجيعه . لقد كان هو خبيراً وعالماً ذائع الصيت ، وكان لديه عربات مركّبة على دواليب، تُستعمل لنقل الأشجار ، والمواد الثقيلة الأخرى .

وبالإضافة الى ذلك فإنه كثيراً ما كان يبني الحصون وأدوات الحرب الأخرى في الغابات، حيث تكثر الأخشاب، ثم ينقلها على هذه العربات مسافة ثلاثمئة أو اربعمئة ياردة الى البحر. وكان لديه خمسمئة نجار ومهندس جاهزين للعمل فوراً من أجل إحضار اضخم عربة لديهم ، وهي تتالف من هيكل من الخشب يبلغ ارتفاعه ثلاث إنشات ، وطوله سبعة اقدام ، وعرضه أربعة ، مركب على اثنتين وعشرين عجلة .

لم تكن الصرخة التي سمعتها إلا إيذاناً بوصول هذه العربة . وكانت قد بدأت رحلتها من العاصمة بعد اربع ساعات من وصولي الى الشاطىء . وما إن وصلت العربة الى المكان الذي كنت مقيداً فيه ، حتى اقتربوا بها مني ثم أوقفوها في محاذاتي ، حيث كنت ممدداً .

كانت الصعوبة الكبرى امامهم هي : رفعي من مكاني ووضعي فوق العربة . ولكن هؤلاء الناس كانوا اذكياء فعلاً . اذ انهم ما إن أوقفوا العربة في مكانها حتى

بادروا الى إحضار ثمانين عاموداً ، يبلغ طول الواحد منها قدماً واحداً ، ثم قاموا بنصبها ، ثم أحضروا حبالاً قوية تبلغ سماكتها سماكة خيط القنّب وربطوا الخطّافات في اطرافها .

ثم أحضروا كمية كبيرة من الضمادات ولفّوها حول عنقي ، ويدي ، ورجلي ، وجسمي . بعد ذلك ثبّتوا الخطّافات المربوطة بالحبال في هذه الضمادات . وبعد ان انتهوا من ذلك ، استخدموا تسعمئةٍ من أشد رجالهم لجذب الحبال بواسطة بكَرات تَمَّ تثبيتها على الأعمدة . وهكذا ، وفي اقل من ثلاث ساعات ، نجحوا في رفعي من مكاني ووضعي فوق العربة ، ثم أعادوا تقييدي بسرعة .

لقد علمت بكل هذا فيما بعد : إذ أنني في الواقع ، كنت غارقاً في النوم طول هذه العملية .. وذلك بفعل المخدر القوي الذي وضعوه لي في الشراب .

وبعد ان أصبح كل شيىء جاهزاً استخدموا الفاً وخمسماية من أقوى الجياد الموجودة لدى الامبراطور ، يبلغ ارتفاع الواحد منها أربع إنشات ، في جر العربة الى العاصمة .

ظللنا نسير طوال ما تبقّى من النهار، ثم استرحنا في الليل . وقد ظللت طوال تلك الليلة تحت حراسة مشددة من قبل خمسمئة حارس كانوا يقفون على كل جانب . وكان نصفهم يحمل المشاعل ، والنصف الآخر يحملون الأقواس والسهام مستعدين لإطلاقها عليّ إذا ما حاولت القيام بأية حركة .

وفي اليوم التـــالي واصلنا مسيرتنا باتجاه العاصمة ، وعند الظهر كنا قد أصبحنا على مسافة مئتي ياردة من ابواب المدينة . فخرج الأمبراطور ترافقة حاشيته من عِلية القوم لمُلاقاتنا . ولكن ضباط الأمبراطور الكبار حاولوا جهدهم لِكَيْ لا يتعرض ملكهم للخطر ، وحالوا دونه ودون الصعود فوقي بأن تسلـّقوا هم جميعاً فـــوق جسمي .

كان بالقرب من المكان الذي وقفت فيه العربةُ معبدٌ قديم ، وكان يعتبر من أعظم معابد المملكة . ولكنه ، لحدوثِ جريمة غير عاديـة فيه ، بات الأهالي يعتبرونه مدنساً . ولهذا فقد أفرغ من محتوياته من الأثاث والأدوات

التذكارية ، وصاروا يستخدمونه استخداماً عادياً .

وهكذا فقد تقرر وضعي في هذا الصَّـرح.

لقـــد كانت له بوابة كبيرة تواجه الشمال ،وكان ارتفاعها اربعة اقدام ، أما عرضها فقد كان يبلغ القدمين . ومن ثم كان بمستطاعي أن أتسلّـل من خلالها بسهولة.والى جانبي البوابة كان هناك نافذتان لايزيد ارتفاع الواحدة منهما عـن ستّ إنشات . والى النافذة التي كانت تقع على يسار البوابة ، أحضر حداد الملك أربعة قضبان حديدية مع إحدى عشرة سلسلة ، تشبه تلك التي تستعملها النساء في أوروبا في ساعات اليد،فوضع هذه السلاسل حول قدمي اليسرى ووضع لها ستاً وثلاثين قفلاً .

وبعد ان انتهى الحداد من عمله ، وجد العمالُ أنه يستحيل علي كسر هذه القيود ، لذا فإنهم فكوا جميع الحبال الأخرى التي كنت مقيداً بها ، واذ ذاك ، نهضت على قدمي ، وانا اشعر بحزن عميق لم اشعر بمثله في حياتي. اما الأصوات التي صدرت عن الجمهور والتي كانت تعبر عن دهشتهم الشديدة لرؤيتي وافقام سائراً – فليس بوسعي أن أصفها لكم .

كان طولُ السلاسل التي تقيد رجليّ يبلغ ياردين مما أتاح لي الفرصة لكي أسير الى الخلف ثم الى الأمام بشكل نصف دائري. وبما ان السلاسل كانت مثبتة على ُبعد اربع إنشات فقط من البوابة ، فإنه كان بمقدوري ان أتسلل زحفاً وان أتمدد براحة تامة داخل المعبد .

٢

عندما وجدت نفسي واقفاً على رجليّ ، أخذتُ أنظر حولي . ويجب أن أعترف هنا ، ان ما شاهدته كان أجملَ المشاهد التي رأيتها في حياتي . لقد بدت المنطقة التي كانت تحيط بي حديقة متصلة ، أما الحقول التي في وسط هذه المنطقه ، والتي تبلغ مساحتها أربعين قدماً مربعاً ـ فكانت تماثل الكثير من مساكب الزهور . وأما المدينة التي تقع إلى الناحية الشمالية ، فقد بدت وكأنها صورة مرسومة داخل أحد المسارح .

وفيما كنت مندهشاً بهذا المنظر الجميل رأيت فجأةَ الأمبراطور يتقدم نحوي ممتطياً أحد الجياد المُطهمة . لكن الحيوان ، المدرَّب تدريباً جيداً ، كان

غير متعودٍ على مثل هذا المشهد .. جبل يتحرك أمامه !
فأخذ يصهل ، ثم انتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين .
ولكن سيده الذي كان فارساً ممتازاً ، ظل في مكانه على
ظهر الجواد ، ولم يتأثر بإجفاله ، إلى ان حضر خدمه
مسرعين وأمسكوا باللجام فترجّل جلالته عنه .

وأخذ الامبراطور ينظر إليّ بإعجابٍ شديد ،
ولكنه ظل بعيداً عني خوفاً من أن أصيبه بسوء .
ثم أمر طباخيه أن يقدّموا لي الطعام والشراب ،
فدفعوه إليّ فوق عربات مركبة على عجلات . فأمسكت
بهذه العربات ، وسريعاً ما التهمت كل ما كان عليها
من الطعام والشراب . كانت عشرون عربة منها محمّلة
باللحم ، وعشراً أخرى بالشراب . وكان مجمل ما تحمله
كل عربة لا يزيد عن ثلاث لُقَمٍ من الطعام ، وهكذا
أتيت على كل ما كان فيها من طعام وشراب في فترة
وجيزة .

كانت الأمبراطورة تجلس على مسافة قريبة من
المشهد ، تحيط بها سيدات العائلة المالكة . ولكنهن عندما
رأين ما حدث لجواد الأمبراطور ، قُمن من مجلسهن

وهرعن نحوه .. وكان الامبراطور أطول قليلاً من باقي
الرعية ، وكان هذا وحده كافياً لأن يُشعر الناظر إليه
عند مشاهدته . وكانت قسماته تنم على الرجولة ، بينما
كانت شفتاه مثل شفاه أبناء النمسا . اما أنفه فكان
معكوفاً ، وبَشَرته بلون الزيتون . والحقّ إن حركاته
كانت تدل على الرشاقة والسمو . وكان هذا الامبراطور
في الثامنه والعشرين من عمره ، أمضى سبع سنوات
في الملك وهو في سعادة عظيمة .

ولكي أسهّل عليه مشاهدتي اضطجعت على جانبي
حتى أصبح وجهي موازياً له ، وقد وقف هو على
بعد ثلاث ياردات مني . وعلى كل حال ، ومنذ ذلك
الحين حملته في يدي مرات كثيرة ، ولذلك لا يمكن
أن أخطىء في الوصف .

كان لباسه بسيطاً جداً ومتواضعاً ، وزيّه بين
الآسيوي والأوروبي ، ولكنه كان يضع خوذة خفيفة
من الذهب ومرصعة بالجواهر على رأسه ، كما كان
يضع ريشة فوقها هي شعار المملكة . كذلك كان يحمل
سيفه مجرداً في يده .. للدفاع عن نفسه إذا ما حاولتُ

الفرار ، وكان طولُ هذا السيف ثلاث إنشات تقريباً ، قبضتُه وغمده من الذهب . وكان صوته قوياً ومرتفعاً ، ولكنه واضح وبيّن تماماً ، وكان بوسعي سماعه بوضوح ، عندما وقفت .

وكانت السيدات ومرافقيهن يرتدين الملابس الفخمة، حتى إن المكان الذي وقفن فيه كان يشبه سجادة مفروشة على الأرض ، ومطرّزة برسوم من الذهب والفضة . وكثيراً ما كان الامبراطور يوجه حديثه إلي ، وكنت أردّ عليه، ولكن كلاً منا لا يفهم ما يتحدث به الآخر .

كان هناك الكثير من الكهنة والمحامين ، وقد أمرهم الأمبراطور أن يقدّموا أنفسهم لي ، فتحدثت اليهم بلغات عدة من بينها : الهولندية ، اللاتينية ، الافرنسية ، الاسبانية ، الايطالية ، ولكن دون فائدة ، فلم يفهموا ولا واحدة منها .

وبعد حوالي الساعتين ، انسحب الأمبراطور وحاشيته ، وتركني تحت حراسة قوية .. خشيةَ تطفل الرعاع ، وربما تهديدهم أيضاً . وكان هؤلاء يتلهّفون

للتجمّع حولي ، وفي أقرب مكان يمكنهم الوصول إليه . بل لقد تجرّأ بعضهم فاطلقوا سهامهم نحوي ، فيما كنتُ أجلس على الأرض بالقرب من مدخل بيتي ، حتى ان أحد هذه السهام أخطأ عيني .

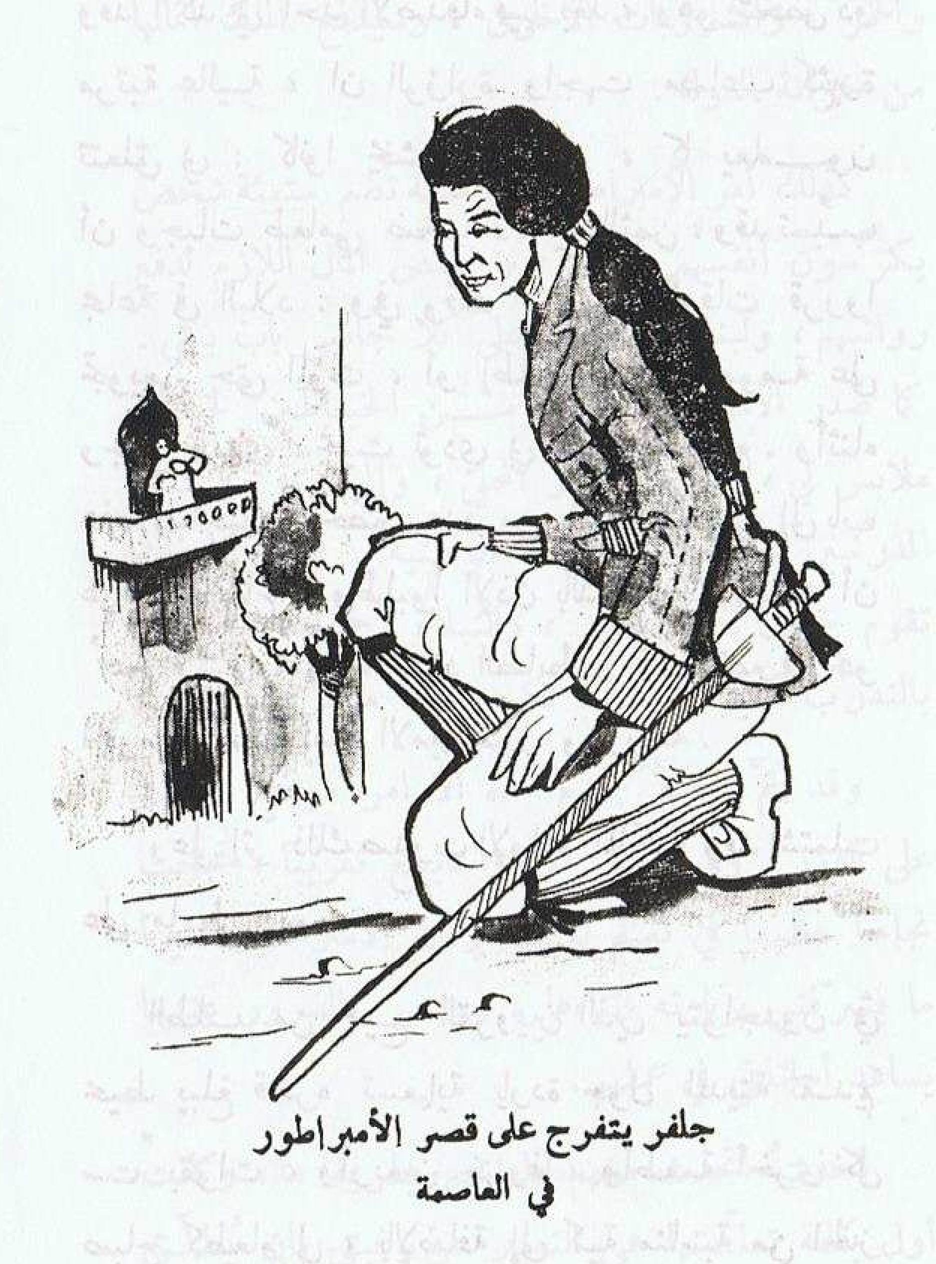
ورأى الضابط المولج بحراستي ذلك ، فامر بالقبض على ستة من المشاغبين ، وفكر أنّ أحسنَ عقاب لهم هو تسليمهم مقيّدين إلي . فامسكت بهم جميعاً في كفي اليمنى ، ثم وضعت خمسة منهم في جيب سترتي ، أما سادسهم ، فقد ألمحت بانني سآكله وهو حيّ .

وقد أخذ الرجل المسكين يصرخ مرتعباً ، حين رأى ما كان ينتظره على يديّ ، أما الضابط وجنوده فقد بدَوا متألمين كثيراً لمصيره ، وخصوصاً عندما رأوني أخرج مطواة الجيب التي كانت بحوزتي ، وأفتحها . لكني سرعان ما أبعدت عنهم هذا الخوف ، عندما أخذت أنظر إلى الرجل بسخرية ، ثم رحت أقطع الحبال التي كان مقيداً بها على الفور . وما إن تمّ ذلك ، حتى وضعته برفق على الأرض ، وما لبث ان فرّ هارباً .

عاملت الآخرين بنفس الطريقة : أخرجتهم واحداً واحداً من جيبي وأطلقت سراحهم . وقد لاحظت ان الجنود والشعب ، الذين كانوا يشاهدون ما يجري ، قد انتابهم السرور لهذه البادرة من الرحمة ، فسرعان ما نقلوها إلى مسامع الامبراطور وحاشيته . وكان هذا في صالحي كما سيظهر في سياق هذه القصة .

حوالى منتصف الليل ، دخلت بصعوبة إلى بيتي ، حيث رقدت على الأرض . وقد بقيتُ دون فراش طيلة أسبوعين ، وكان الأمبراطور قد أصدر أوامره بتزويدي به . ومن ثم أحضروا لي ما يزيد على ستمئة فرشة من حجمهم على عربات ، ثم خاطوها في بيتي . وقد تطلبَتْ عملية خياطة فرشة لي وَصْلَ مائة وخمسين فرشة بعضها مع بعض .. لكن هذه الفرشة لم تُبعد عني صلابة الأرض لا بكثير ولا بقليل . وبعد ذلك زوّدوني بالأغطية والشراشف التي اعتقدوها كافية .

وفي هذه الأثناء كان الامبراطور يعقد جلسات متلاحقة ، لتقرير الطريقة التي يجب أن يعاملني بها .



جلفر يتفرج على قصر الأمبراطور في العاصمة

وقد أكّد لي أحد الأصدقاء فيما بعد، وهو شخص ذو مرتبة عاليـة، ان الوزارة واجهت مصاعب كثيرة تتعلق بي: كانوا يخشون فراري، كما يعلمـون أن وجبات طعامي ضخمة، غالية الثمن، وقد تسبّب مجاعة في البلاد. وفي وقت مـن الأوقات قرروا تجويعي حتى الموت، أو إطلاق سهام مسمومة على وجهي ويديّ، بحيث تودي بي بشكل سريع. وأثناء هذه المباحثات، حضر عدد من ضباط الجيش إلى باب غرفة الاجتماع، وطلبوا الإذن بالدخول. وبعد أن سُمح لاثنين منهم، سرد الضابطان قصة تصرفي نحو المجرمين الستة أمام الامبراطور ووزرائه.

وعلى إثر ذلك صدرت الإرادة الملكية وقد اشتملت على ما يلي:

الطلب من جميع القرويين الذين يتواجدون في محيط يبلغ قطره تسعماية ياردة حول المدينة تقديمَ ستّ بقرات، وأربعين خروفاً، وأطعمة أخرى كل صباح كطعام لي، بالإضافة إلى كمية مناسبة من الخبز

والخمر، والمشروبات الأخرى، وسيدفع الملك أثمانها من خزانة الدولة.

كذلك أمر الأمبراطور مؤسّسة تضم ستمئة شخص يكرّسون أنفسهم لخدمتي، وخصص المال اللازم لدفع رواتبهم، ولبناء خيام لهم على كلا جانبي باب بيتي. كما صدر الأمر إلى ثلاثمئة مـن الخيّاطين لخياطة ملابس لي، حسب الطراز المحلي، وإلى ستة من كبار المدرّسين لتعليمي لغة البلاد الوطنية. وأخيراً.. أن تقوم خيول الامبراطور، والنبلاء وجماهير الحرّاس بالتدرُّب كثيراً أمامي، لكي تألف منظري.

وقد تمَّ وضعُ جميع هذه الأوامر موضع التنفيذ على الفور. وفي خلال ثلاثة أسابيع تقريباً، نجحت نجاحاً عظيماً في تعلُّم لغتهم، وكان الأمبراطور كثيراً ما يشرّفني بزيارته اثناءها، ويشعر بالسرور عندما يساعد أساتذتي في عملهم.

أخذتُ أتحدث معهم بلُغتهم بطريقة ما، وكانت أول كلمة تعلّمتها هي التعبير عن رغبتي بان يُطلَق

سراحي . وقد ظَلَلْتُ أردّد مطلبي هذا ، وأنا راكع على ركبتي ، كل يوم تقريباً . وكان جواب الامبراطور كما فهمته ، ان تلبية طلبتي هذا هي قضية وقت ، ولا يمكن التفكير به دون استشارة وزرائه ، وعليّ أولاً أن أعقد معاهدة سلام معه ومع مملكته . ثم طلب مني الاّ أغضب ، إذا ما كلّف بعض ضباطه القيام بتفتيشي ، فقد أكون مخبّئاً بعض الأسلحة التي يمكن أن تشكّل خطراً ، إذا ما استخدمها شخص هائل مثلي . وقد أجبتُه :

– أنا على استعداد لنزع ملابسي ، وقلْب جيوبي أمامكم ، حيث تكون جلالتكم راضياً .

فقال :

– إن قوانين المملكة تفرض أن يقوم بذلك ضابطان ، ولن يتم ذلك دون موافقتك ومساعدتك ، ولديّ الانطباع بأنك شخص كريم وحكيم ، وبوسعي أن أئتمنك عليهم . أما الأشياء التي سيأخذانها فسوف تُعاد إليك كاملة عند مغادرتك البلاد .

أمسكتُ بالضابطين بين يدي ، فوضعتهما أولاً داخل جيوب سُترتي ، ثم داخل كلّ جيب كان موجوداً في ملابسي ، باستثناء جيب الساعة وجيب آخر سرّي حيث كنت أضع فيهما بعض الأشياء الضرورية الصغيرة التي لا تهم أحداً غيري ، وهي : ساعة فضيّة ، وكمية صغيرة من الذهب موضوعة داخل (جزدان) صغير .

وكان لدى الضابطين قلم وحبر وورق ، فقاما بعمل جَرْدة دقيقة ، تمكنتُ من ترجمة مضمونها فيما بعد إلى اللغة الانكليزية :

أولاً ، بعد تفتيش دقيق ، وجدنا في جيب السترة الأيمن للرجل – الجبل ، قطعةً كبيرة من القماش تصلح أن تكون سجادة في غرفة عرش جلالتكم . وأما في جيب السترة الأيسر ، فقد رأينا صندوقاً ضخماً من الفضة ، عليه غطاء من نفس المعدن ، لم نتمكن من رفعه . فطلبنا أن يتم فتحه ، وبعد أن تم ذلك ، قفز أحدُنا في داخله ، ووجد نفسه وقد غطى الغبار ساقَهُ حتى منتصفها ، وقد تطاير بعض هذا الغبار في وجوهنا وسبّب لنا العطاس بضع مرات .

وفي جيب صُدَيريته وجدنا عدداً هائلاً من المواد البيضاء الرقيقة، وكانت الواحدة منها ملفوفة فوق الأخرى، ومربوطة بسلك قوي، ومزينة برسوم سوداء، نظن أنها كتابات، وكان قياس كل حرف منها في مثل راحة يدنا. وفي الجيب اليسرى، كان هناك شيء يشبه المحرّك يبرز من خلفه عشرون عاموداً طوالاً، تشبه الأوتاد الموجودة أمام قصر جلالتك، ونعتقدُ أن الرجل ـ الجبل يستعمله لتمشيط شعره، إذ أننا لم نكن نزعجه بالأسئلة، لأننا وجدنا صعوبة لكي نجعله يفهمنا.

أما في جيب السروال الأيمن، فقد رأينا عموداً مجوّفاً من الحديد، يبلغ طوله طولَ الرجل، وكان مربوطاً بقطعة قويّة من الخشب، أكبر من العامود، وإلى جانبٍ من العمود كان هناك قِطع ضخمة بارزة من الحديد، ولا نعلم ما هي.

وفي الجيب الأيسر، وجدنا محركاً آخر من نفس النوع. وفي الجيب الأصغر من ناحية اليمين كان هناك

بضع قطع مبسّطة من معدن، لونها أبيض وأحمر، وذات أوزان مختلفة. فكانت بعض القطع الفضيّة البيضاء كبيرةً وثقيلة الوزن إلى حد بعيد، حتى أنني ورفيقي تمكنّا من رفع أحدها بصعوبة. وفي الجيب الأيسر كان هناك عامودان، أحدهما قطعة واحدة ومغطى، ولكن على الطرف الأعلى للعامود الآخر، كان هناك قطعة بيضاء مستديرة الشكل، يبلغ حجمها ضعف حجم رؤوسنا. وفي داخل كل من هذه الأعمدة كانت هناك صفيحة معدنية ضخمة. وقد طلبنا منه أن يُرينا إياها، لأننا خشينا أن تكون محركات خطرة. وبالفعل أخرجها الرجل ـ الجبل من صناديقها وأخبرَنا أنه يستعمل مثل هذه المحرّكات في حلاقة الذقن، وتقطيع اللحم.

كان يبرز من جيب الساعة الأيمن سلسلة كبيرة من الفضة، مع محرك جميل جداً كان معلّقاً في أسفل السلسلة. فطلبنا من الرجل ـ الجبل أن يُخرج ما كان على الطرف الآخر من السلسلة. وفعل.. فوجدناه على شكل كرة، نصفه من الفضة والنصف الآخر من

معدن شفّاف . وقد رأينا على الناحية الشفافة منه بعض الأرقام الغريبــة ، المرسومة بشكل دائري . واعتقدْنا أنه بوسعنا لمسها ، وقد حاولنا ذلك .. لكن أصابعنا ارتطمت بتلك القطعة الشفافة .

قرّب الرجل ـ الجبل المحرك إلى آذاننا ، وقد سمعنا صوتاً متواصلاً يصدر من داخله مثل هدير طاحونة الماء . ونحن نعتقد أن هذا المحرّك أحـد الحيوانات المجهولة ، أو الإله الذي يعبده هذا الرجل . ولكننا أكثر ميلاً لتقبل الرأي الثاني ، لأنه أكد لنا ، أنه نادراً ما يقوم بأي عمل قبل استشارة هذا المحرك وقد سماه « وَحْيَه » ، وقال إنه يشير إلى الوقت.

أخرج الرجل ـ الجبل من جيب الساعة الأيسر شبكة كبيرة كغابة لتُستخدم من أجل الصيد ، فوجدنا فيها قطعاً ثقيلة من معدن أصفر ، ولو كانت هـذه من الذهب ، لكان لها ثمنٌ ضخم .

وبعد أن انتهينا من تفتيش جميع جيوبه استجابةً لأمر جلالتكم ، لاحظنا وجود حزامٍ حول وسطه ،

مصنوع من جلد حيوان ضخم ، وكان هنـاك سيف ضخم يبلغ طوله طول خمسة رجالٍ ، يتـدلى إلى إلى جانبه الأيسر . وأما على جانبه الأيمن ، فقد كان هناك محفظة ، مقسَّمة إلى قسمين ، وكل قسم منهـا يتسع لثلاثـة رجَالٍ من رعايا جلالتكم . وقد وجدنا في قسم منها عدداً من الكرات ، كان وزنها ثقيلاً للغاية ، وكان حجمها يوازي حجم رؤوسنا ، وتحتاج إلى يدٍ بالغة القوة لرفعها . أما القسم الآخر فقد كان يحتوي على كومة من الحبوب السوداء ، لم يكن وزنها ثقيلاً لأننا تمكنّـا من حمل حوالي خمسين حبة منها في راحة يدنا .

هذا بيان دقيق لكل مـا وجدناه حول جسم الرجل ـ الجبل ، الذي عاملَنا بلطف عظيم .

تم التوقيع عليه وختمه في اليوم الرابع من القمر التاسع والثمانين من أيام ملككم الميمون

كليفرين فربلوك
مارسي فربلوك

وعندما تمت قراءة هذا البيان أمام الأمبراطور ، طلب مني بطريقة لطيفة ، أن أُسلم جميع هذه الأشياء. وفي نفس الوقت ، أمر ثلاثة آلاف من نخبة جيشه أن يقوموا بتطويقي من بعيـــد ، وسهامهم جاهزة للانطلاق عند أول اشارة . ثم طلب مني أن أخرج السيف من غمده ، ففعلتُ ذلك وعلى الفور أطلق الجميع صرخة تتراوح بين الرعب والدهشة. لقد كانت الشمس مشرقة ، وانعكاس أشعتها على شفرة السيف بَهرَ عيونهم ، عندما حرّكت السيف في يدي .

ولكن صاحب الجلالة ، كان أقلَّ فزعاً مما كنت أنتظر ، فامرني أن أعيده إلى غمده ، ثم أقذفـه على الأرض ، إلى بعد ستة أقدام تقريباً من مدى السلسلة التي كنت مقيّداً بها .

وكان الشيءُ الثاني الذي طلبه الملكُ هو أحد أعمدة الحديد المجوّفة ، وكان يعني بذلك المسدسات التي كانت معي . فاخرجت أحد المسدسات من جيبي ، وبنـاءً على رغبته بيّـنت له طريقة استعماله . وبعد أن حذّرته ألا يخاف ، عبّأتُ المسدس ببعض البارود ، الذي لم

يكن قد تبلل بمياه البحر ، ثم أطلقته في الهواء . وكان ذهولهم الآن أشدّ من ذهولهم لرؤية السيف . فوقع المئاتُ منهم على الأرض كما لو أن صاعقة قد ضربتهم .

وسلّـمت المسدسين بنفس الطريقة التي سلّمت بها السيف ، ثم أتبعتها بكيس البارود والرصاصات ، وأنا أرجوه أن يُبعد الرصاصاتِ والبارود عن النار ، وإلاّ انفجرتْ عنـد أول شرارة ، ونسفتْ قصره الملكي بكامله . بعد ذلك سلّـمت الساعة ، وكان الأمبراطور متلهفاً للاطلاع عليها ، فامر اثنين من أطول حراسه أن يحملاها فوق عامود على أكتافهما مثلما يفعل سائق الكرّاجة في انكلترا عندما يحمل برميل الجعَة . وقد اندهش من ذلك الصوت المتواصل الذي يصدر عنهـا ومن عقرب الدقائق ، الذي كان يتبيّـنه بوضوح .

ثم إنّه طلب من كبار علماء البلد أن يُبدوا رأيهم بالساعـة ، وكانت آراؤهم متعددة وبعيدةً عن الحقيقة . ثم سلّمت أيضاً جميع القطع النقدية التي كانت لديّ ، ومحفظتي مع تسع قطع كبيرة من الذهب ، وبعض القطع الذهبية الأخرى الأصغر حجماً ،مثل: مديتي،موسى

الحلاقة ، مشطي ، وعلبة العطوس الفضيّة ، منديلي ، ودفتر مذكراتي اليومية وبسرعة تمّ نقلُ سيفي ومسدساتي ومحفظتي في عربات إلى مستودعات صاحب الجلالة ، فيما أعيدتْ لي بقية الأغراض .

وكما ذكرت سابقاً ، فقد كان لديّ جيب سريّ كنت أحتفظ فيه بنظاراتي وبعض الأشياء الضرورية الأخرى .

٣

كان لدماثتي وحُسن تصرفي تأثيرٌ حَسَن في نفس الأمبراطور والحاشية والجيش والشعب على السواء ، حتى بتُّ أشعر أن إطـلاق سراحي بات قريب المنال . وبناءً على ذلك فقد اتخذتُ جميع الاحتياطات لتشجيع تصرُّفي المشجِّع هـذا ، حتى أصبح القرويون أقل خوفاً من ناحيتيّ . كنت أستلقي أحياناً عـلى الأرض ، وأدع خمسة أو ستة منهم يرقصون في يدي . وفي النهاية تجرّأ الفتيان والفتيات واقتربوا مني ثم ما لبثوا أن بدأوا يلعبون « التعماية » في شَعري .

أصبحت الآن أكثر قدرة على تفهم لغتهم والتحدث

بها . وذات يوم ، خطر للأمبراطور أن يعرض أمامي إحدى المسرحيات الوطنية . وقد أحسست بالسرور حين ظهر أمامي راقصو الحبال ، وأخذوا يقومون بدورهم في الرقص فوق خيط أبيض رفيع ، يمتد مسافة قدمين ، ويرتفع ١٢ إنشاً فوق الأرض .

كان هذا النوع من اللهو مخصصاً للأشخاص الذين يرشّحون أنفسهم لتسلم وظائف عالية في الدولة . فحين تشغر وظيفة ما ، لوفاة صاحبها أو طردوه لسوء سلوكه ، يقوم خمسة أو ستة أشخاص بتقـــديم عريضة إلى الامبراطور ، يعرِضون فيها أن يقوموا بالعابٍ مسلية له ولحاشيته ، وهذه الألعاب هي الرقص على الحبال . ومن استطاع القفز أعلى من غيره ، دون أن يسقط عن الحبل ، فاز بالوظيفة الشاغرة .

وكان هناك أيضاً تسلية أخرى ، ولكنها تُعرض في مناسبات خاصة ، أمام الأمبراطور والأمبراطورة والوزير الأول في الدولة . فكان الأمبراطور يضع فوق طاولة ، ثلاثة خيوط ملوّنة من الحرير طولُ الواحد منها ستُّ إنشات ، واحداً أزرق ، وآخر أحمر ، والثالث

أخضر . وكان الامبراطور يقدم هذه الخيوط كجوائز إلى الأشخاص الذين يرغب في منحهم مركزاً مميّزاً عن غيرهم .

وكان هناك نوع من الاحتفال يقام في قاعة العرش بالقصر الامبراطوري . ويكون على المرشّحين أن يخضعوا لامتحان براعتهم بشكل يختلف كثيراً عن الامتحان السابق . ففيّه يمسك الامبراطور بعَصا بين يديه ، وتكون مثنيّة بحيث تتوجه أطرافها إلى أعلى بشكل متوازٍ . ويتقدم المرشحون واحداً واحداً ، فيَقذفون العصا ، أو يزحفون تحتها رائحين غادين إلى الخلف وإلى الأمام لعدة مرات ، حسبما يكون اتجاهها . وأحياناً أخرى كان الأمبراطور يمسك طرفَ العصا فيما يُمسك الوزير بطرفها الآخر ثم يبدأ اللعب . فمن استطاع أن يؤدي دوره بشكل أكثر خفةً من غيره ، ويصمد وقتاً أطول في القفز والزحف ـ فاز بخيط الحرير الأزرق ، ثم الخيط الأحمر لمن يليه ، والأخضر إلى لاعب الدرجة الثالثة .

**

لم تعد خيـــول الجيش ، وأفراس الاصطبلات
الملكية تجفل مـني ، بعد أن واصلتْ القيام بتدريباتها
اليومية أمامي لفترة طويلة ، بل أخذت تأتي إليّ غير
وجلة ولا خائفة . كان فرسانها يجعلونها تقفز فوق
يدِي وأنا أضعها على الأرض ، حتى إن أحـد قناصة
الملك ، وقـد كان يمتطي فرساً سريعاً ، قفز بفرسه
فوق رِجلي وحذائي ، وكانت قفزة الفرس هـــذه
عظيمة حقا .

وقد حالفني التوفيق ذات يوم وتمكّنت من تسلية
الأمبراطور بطريقة غير عادية . فقد طلبت منه أن
يامر بإحضار عدد من القضبان يبلغ ارتفاع الواحد
منها القدمين ، ثم أخذت تسعةً منها وغرستها في الأرض
على شكل مربّع يبلغ محيطه قدمين ونصفاً . بعـــد
ذلك تناولت أربعة قضبان أخرى وربطتها من أطرافها
بشكل متوازٍ على ارتفاع قدمين عـــن الأرض ، ثم
ربطت منديلي إلى القضبان التسعة وفرشت المنديـل
فوقها مشدوداً وكأنه جلد طبل . وأما القضبان الأربعة

التي كانت تعلو المنديل بخمسة انشات ، فقـد كانت
بمثابة الإفريز على كل جانب .

بعد هذا سالت الأمبراطور ان يجعـل مجموعة من
أفضل خيوله ، تقوم بتمارينها فوق هذا المنبسط . فوافق
الامبراطور على طلبي هذا، وحضرت الخيول والفرسان .
عند ذلك تناولتهم واحداً واحداً في يدي ووضعتهم
فوق المنديل . وحالما انتظموا ، انقسموا إلى فريقين ،
وأخذوا يقومون بعمليات مناوشة . . . . وهم يطلقون
سهامهم جزافاً ، ويمتشقون سيوفهم . فكان فريق منهم
يهرب بينما الفريق الآخر يلاحقه ويتراجع .

وبالاختصار ، اكتشفت ان لدى هذا الجيش أفضل
انضباط عسكري شاهدته إلى الآن . وكان من حسن حظي
انه لم يقع أي حادث أثناء قيامهم بهذه المناورات ، باستثناء
حادثٍ وقع لجوادٍ جامح كان يمتطيه أحـد الضباط .
كان الجواد يضرب برِجله ، فسقطت في ثقب كان
بالمنديل ، وانزلقت في داخل الثقب ، ووقع هو براكبه .
لكنـّي خلـّصتهما على الفور ، ثم غطيت الثقب بيدي
وأنزلتُ فرقة الخيالة بنفس الطريقة التي رفعتهم بها .

وقد أصيب الحصان بالتواءٍ في كتفه الأيسر ، أمـــا
راكبه فلم يُصـب بأذى .

بعد مرور يومين على هذه المغامرة ، أمر الامبراطور
نصف جيشه الذي كان يعسكر في العاصمة ، وحولها ،
أن يكون مستعداً . ثم طلب مني أن أقف مثل تمثال
فارجاً بين ساقيّ إلى أقصى ما يمكن . وبعد أن تم
ذلك أمر جنراله أن يجمع قواتـه ويجعلهم يسيرون
تحتي . وكانت هذه القوات تتألف من ثلاثة آلاف من
المشاة وألف من الخيالة . وهكذا مرّت جميع هـذه
القوات بمعدّاتها من تحتي بنظام عسكري دقيق .

طوال الفترات التي مرّت على احتجازي في هذه
الجزيرة واصلتُ إرسال طلبات الاسترحام من أجل
إطلاق سراحي . وأخيراً وافق الامبراطور على بحث
قضيتي مع مستشاريه ، فلم يعارض طلبي أحد باستثناء
« سكيريش بولفولام » ، الذي جعل من نفسه ألدَّ عدوٍّ
لي . لكن معارضته لم تلقَ أذناً صاغية .

كان « جالبت » الوزير ، الأميرال الأول للمملكة ،

وكان يحظى بالكثير من ثقة مولاه ، ولكنّ طبيعته
كانت نكدة المزاج وحساسة . ومهما يكن فإنه وافق
في النهاية ، ان اقوم بكتابـــة الشروط التي تخوّلني
استعادة حريتي ، بنفسي ، وأن أقسم اليمين عليها .
وقد تم إحضار المواد التي ستشكّـل منها وثيقة اطلاق
سراحي من قِبَل « بولفولام » ، بل لقد جلبها لي بنفسه ،
مع اثنين من مساعديه ، وعدد آخر من الأشخاص
ذوي المكانة . وبعد أن تمت قراءة هذه المواد أمامي ،
طُلِب مني أن أحلف اليمين متعهداً بتنفيذ كل ما بها .
وكانت الطريقة المتّبعة والمدرجة في القوانين لديهم ،
حين الحلْف ، هي : ان أمسك قدمي اليمنى بيدي
اليسرى ، وان أضع أصابع يدي اليمنى فوق رأسي ،
وأضع باهمي على طرف أذني اليمنى .

وحيث ان القارىء لا بد وأن يستغرب ما ذكرته
سابقاً ، أردت هنا أن أعطيـــه فكرةً عن أسلوب
وسلوك وتفكير هذا الشعب الغريب ، بالإضافة إلى
إطلاعه على شروط وثيقة الحرية :

« جولباستو مومارم إفلامي جورديلو شيفين موللي غوي » (وهذا هو اسم الامبراطور) ، أمبراطور ليليبوت البالغ العظمة ، بهجة الكون وراعيه ، الذي يمتد سلطانه فوق خمسة آلاف « بلوستروج » (حوالي اثني عشر ميلاً تقريبا) إلى ان يصل أطراف الكرة ، ملك الملوك ، أطول ابنـاء الرجال قاطبـة ، الذي يضرب رأسه الشمس ، وعند إيماءته ترتجف رُكَب أمراء هذه الأرض ، مريح مثل الصيف ، مثمر مثـل الخريف ، ومخيف مثل الشتاء . يقترح صاحب الجلالة المعظم على الرجل ـ الجبل ، الذي وصل إلى مملكتنا المباركة مؤخراً ، المواد التالية ، التي بقسمٍ مقدس منه يتعهد بتنفيذها .

أولاً : لن يغادر الرجل ـ الجبل مملكتنا دون إذن ممهور بخاتمنا .

ثانياً : لن ياتي إلى عاصمتنا ، دون أوامر منا ، ليكون لدى السكان مـدة ساعتين يلجاون فيها إلى منازلهم قبل وصوله .

ثالثاً : يحدّد الرجل ـ الجبلُ المذكور سيره ضمن طرقنا العامة ، ولا يحاول السير أو النوم في مرج أو حقل مزروع بالحبوب .

رابعاً : عليه وهـو يسير على الطرق المذكورة اعلاه ، ان يكون حذراً ، لئـلا يدوس أحداً من رعايانا المحبوبين ، أو خيولهم أو عرباتهم ، ولا يأخذ أياً منهم بين يديه دون موافقته الشخصية .

خامساً : إذا ما تطلّب إرسال رسول غير عادي ، يجب على الرجل ـ الجبل ان يحمل الرسول وحصانه في جيبه على مدى رحلة لمدة ستة أيام ـ وذلك لمدة واحدة في كل قمر وأن يُعيد الرسول المذكور ، اذا ما طُلِب منه ذلك ، سالماً إلى حضرتنا الأمبراطورية .

سادساً : عليه أن يكون حليفاً لنا ضد أعدائنا في جزيرة « بليفوسقو » ، وان يعمل جهده لتدمير قواتهم واسطولهم ، التي تستعد الآن لمهاجمتنا .

سابعاً : وانه على الرجل ـ الجبل المذكور ان يساعد في اوقات فراغه ، عمّالنا في رفع بعض الأحجار

الضخمة ، ونقلها إلى الجدار الذي يقـــام في الساحة العمومية ، والمساعدة في بناء الأبنية الملكية الأخرى .

ثامناً : أن يقدّم ، خلال « قمرين » ، تقريراً صحّياً عن محيط مملكتنا ، يحسبه بخطواته حول الشاطىء .

وأخيراً عندما يُقسم الرجل – الجبل على تنفيذ هذه البنود تنفيذاً صادقاً وكاملاً ، فإنه سيحصل على مخصصاتٍ يومية من اللحم والشراب تكفي لإطعـــام ١٧٢٤ فرداً من رعيّتنا ، مع اعطائه مطلق الصلاحية للدخول إلينا كلما شاء ذلك ، مع علامات أخرى تدل على عطفنا .

تم التوقيـع على هذه الوثيقـــة في قصرنا في « بيلفابوراك » ، في اليوم الثاني عشر من السنة القمرية الواحدة والتسعين من حكمنا .

أقسمتُ وتعهدت ان أنفذ هذه الشروط بسرور كبير ، مع ان بعض هذه الشروط لم يكن مشرّفاً لي كما كنت أرجو . وهكذا نُزعتْ قيودي وأصبحت أتمتع بحريّتي الكاملة .

ويسرّ القارىء ان يلاحظ هنا ، ان الوثيقة تعيّن مخصصات من الطعام تكفي لإطعام ١٧٢٤ من أهالي ليليبوت . وقد سالت أحد الأصدقاء ، بعد فترة من الوقت ، كيف تمكّنوا من تحديد عدد الأشخاص بمثل هذا التأكيد ، فأخبرني أن علماء الرياضيات عندهم أخذوا ارتفاع قامتي بعين الاعتبار ، ووجدوا أنها تعادل ارتفاع ١٢ منهم فاستنتجوا ان جسمي يجب ان يحتوي على ١٧٢٤ من أجسامهم ، وبالتالي ، يلزمه كمية كافية لمثل هذا العدد .

وهذه الطريقة تجعل القارىء يفهم براعـة هؤلاء النـــاس وحكمة إمبراطورهم العظيم في إدارة شؤون رعيّته .

٤

كان أول طلب تقدّمت به إلى الامبراطور بعد إطلاق سراحي ، هو ان يسمح لي بزيارة العاصمة ، مِلوندو . وقد منحني موافقته على الفور . ومن ثم ، تم إعلام السكان عن رغبتي في زيارة المدينة ، فلزم معظم الأهلين بيوتهم . وكان أول ما طالعني عند وصولي إلى هناك ، الجدار المحيط بها ، والذي كان ارتفاعه يبلغ قدمين ونصفاً ، وعرضه أحد عشر إنشاً ، حتى إن عربة مع خيولها كانت قادرة على السير فوقه بكل سهولة .

وكانت هناك مراكز مراقبةٍ موزعةٍ على ذلك السور من جميع جوانبه ، يبعد الواحد منها عن الآخر عشرة اقدام .

مررت فوق بوابة المدينة الغربيّة الكبيرة ، وأخذت أسير خلال شوارعها الرئيسية ، بكل رِفق ، وأنا ارتدي صُدريّتي فقط خوفاً من إيقاع ضررٍ بالسقوف وأفاريز البيوت . وكنت أسير حذِراً جداً ، لتفادي دَوْس أحدٍ من المتشردين الذين يُحتمل ان يكونوا قد ظلُّوا في الشوارع ، رغم الأوامر المشددة التي كان الامبراطور قد أصدرها محذّراً من ذلك . وكانت نوافذ المنازل وسطوحها مزدحمة بالمتفرجين ، ولا أعتقد أنني رأيت مكاناً يزدحم بالسكان إلى هذا الحد مثل هذا المكان ، في جميع رحلاتي السابقة .

كانت المدينة مصمَّمة على شكل مربعات ، وكان طول كل جانب من السور يبلغ خمسمئة قدم . وكان الشارعان الرئيسيان في المدينة متقاطعين ، يقسمان المدينة الى أربعة مربعات ، عرضُ كل منهما خمسة أقدام . أما الأزقّة ، التي لم يكن بوسعي دخولها ، فقد رأيتها أثناء مروري . وكان طول الواحد منها ما بين اثني عشر وثمانية عشر إنشاً . وأما المدينة نفسها فهي تتسع لخمسمئة ألف نسمة ، وبناياتها مؤلفة من

ثلاثة طوابق إلى خمسة ، وكلّ مخازنها وأسواقها ممتلئة
بالبضائع المختلفة .

كان قصر الامبراطور يقع عند تقاطع الشارعين
الرئيسيين في المدينة . وكان محاطاً بسورٍ يبلغ ارتفاعه
قدمين ، وبعيداً عن المباني الأخرى عشرين قدماً .
وقد حصلت على إذن من جلالته أن أقف فوق هذا
الجدار ، وكانت المسافة بين القصر والسور واسعة ،
يسّرت لي رؤيته من جميع جوانبه . أما مباني القصر
الخارجية فكانت تشغل منطقة مربعة يبلغ قطرها
أربعين قدماً وتشتمل على بنايتين أخريين .

كانت منازل العائلة المالكة في داخلها ، وكانت لديّ
رغبة شديدة في زيارتها . لكنني وجدت ذلك صعباً
للغاية ، إذ أن البوابات الكبيرة التي كانت تؤدي من
باحة إلى أخرى فيها كان ارتفاعها ثمانية عشر انشاً ،
وعرضها سبعة انشات .

أما مباني القصر الخارجية فكان ارتفاعها خمسة
أقدام ، وكان من غير الممكن أن أسير فوقها دون أن
أوقع ضرراً أكيداً بها ، رغم ان الجدران كانت قوية

ويبلغ سمكها أربعة انشات . وفي نفس الوقت ، كان
الامبراطور يرغب كثيراً في إطلاعي على فخامة
قصره ، ولكني لم أستطع تلبية رغبته هذه إلا بعد
ثلاثة أيام ، أمضيتها في تقطيع الأشجار الضخمة من
الحدائق الملكية ، وكانت هذه تبعد مئة يارده عن
المدينة . وقد صنعت لي كرسيّين من هذه الأشجار ،
يبلغ ارتفاع الواحد منهما ثلاثة أقدام .

وبعد ان تم إنذار السكان المرة الثانية ، عدتُ
مرة أخرى إلى المدينة ثم إلى القصر ، وأنا أحمل
الكرسيّين في يَدَي . وعندما وصلت إلى جانب المبنى
الخارجي ، وقفت على كرسيٍّ ، ثم أمسكت
بالكرسي الآخر في يدي ، ورفعته فوق السطح ثم
وضعته برفق في الفراغ الموجود بين البناية الأولى
والبناية الثانية . ثم قفزت فوق البناية بكل سهولة ،
ورفعت الكرسي التي كنت أقف عليه في الخارج
وأخذته معي . وبهذه الطريقة وصلت إلى المبنى
الموجود في العمق .

استلقيت على جانبي وتطلّعت من نوافذ القصر

المفتوحة ، فوقع نظري على أجمل ما رأيت في حياتي من البيوت المجهزة بأفخم الرياش والأثاث . كانت هذه الشقّـة هي شقة الملكة وأطفالها الذين كانوا موزّعين على غرف القصر ، والخدم يشرفون على خدمتهم . وقد رأتني صاحبة الجلالة فابتسمت لي وهي تبدي سرورها لرؤيتي ، ثم أعطتني يدها من خلال النافذة لكي أقبّلها .

وذات صباح بعد أن فُزت بحريتي بأسبوعين ، حضر إلى بيتي « رلدريسال » السكرتير الأول للشؤون الخاصة ، ومعه أحد خَدَمه . فطلب من سائق عربته أن ينتظر في مكانٍ بعيـد نسبياً ، وطلب مني أن أمنحه جزءاً من وقتي ، لأن لديه بعض الأمور التي يرغب في استشارتي بخصوصها . وبعد أن لبّيت طلبه ، بدأ الحديث بتقديم تهنئته على نيل حريتي ، ثم أضاف أنه لو لم تكن الأوضاع السائدة في القصر على ما هي الآن ، لما تمكنتُ من نيل حريّتي بهذه السرعة . لأنه ، كما قال : مهما كانت حالة الازدهار التي نعيش فيها بادية أمام الغرباء ، فإننا نعاني الكثير من شرّين

كبيرين : « انقسام داخلي شديد في الداخل ، وخطر هجوم خارجي ، يشنه عدو قوي ، من الخارج . « أما بالنسبة للخطر الأول ، فاعلمْ ، أنه منذ سبعين دورة قمرية ، كان هناك جماعات متناحرة في هذه المملكة ، تُعـــرَف باسم « ترامكسان » و « سلامكسان » . وكانوا يميزون أنفسهم بكعوب أحذيتهم العـالية والواطئة . وكانت العداوة بين هاتين الجماعتين شديدة للغاية ، حتى إنهم لم يكونوا يشتركون في تناول شراب أو غذاء مع بعضهم .

نحن نعلم أن فريق « ترامكسان » ذوي الكعوب العالية ، يفوقوننا عدداً ، ولكن السلطة كانت بمجملها إلى جانبنا . ونحن ندرك لماذا يعامل صاحب الجلالة ، ذوي الكعوب العالية برحمة ، فأحد كعبي حذائه أعلى من الآخر ، مما يجعله يعرج في مشيته . والآن ، وفي وسط هذه القـلاقل الداخلية ، فنحن مهدّدون أيضاً بالهجوم علينا من جزيرة « بليفوسقو » ، الأمبراطورية الأخرى في هذا الكون ، والتي يُوازي حجمـها وقوّتها حجم وقوة امبراطورية جلالته .

ونحن نعلم أن هناك دياراً في العالم ، تَقطنها مخلوقات حية بمثل ضخامتك ، لكنّ فلاسفتنا فضّلوا فكرة أنك هبطت من القمر أو أحد النجوم .. لأنه يبدو مؤكداً ، أن مئة شخص من حجمك ، لا بد وأن يقضوا على جميع الفواكه والماشية الموجودة في المملكة في وقت قصير .

هذا بالإضافة إلى ان تاريخنا الذي يعود إلى ستة آلاف دورة قمرية لا يأتي على ذكر أيّ ممالك أخرى باستثناء امبراطوريتي « ليليبوت » و « بليفوسقو » العظيمتين . وهاتان الامبراطوريّتان، ظلّتا مشتبكتين في حرب ضروس منذ ست وثلاثين دورة قمرية . وقد بدأت هذه الحرب هكذا :

كان معروفاً لدى الجميع ، أن الطريقة البدائية لكسر البيض ، هي أن تُكسَر البيضة من عَقبِها ، ولكن فيما كان جد صاحب الجلالة الحالي ، طفلاً ، يهم بأكل بيضة ، فإنه كسرها طِبقاً للعادة القديمة ، فجرح أحد أصابعه .

ونتيجة لهذا الحادث أصدر والدُه الامبراطور ،

أمراً ملكياً لجميع رعاياه ، أن يكسروا البيضة من جهة رأسها ، تحت طائلة العقاب . وقد قُدر عدد الأشخاص الذين حُكم عليهم بالإعدام ، بأحدَ عشر الفاً ، لأنهم لم يستجيبوا لأمر الامبراطور ، وظلّوا يكسرون البيضة من عقبها .

وخلال فترة هذه المشاكل ، كان أباطرة « بليفوسقو » المتتابعين يعترضون ، بواسطة سفرائهم ، متّهمين إيانا بخلق انقسام ديني ، والتعرض لتعاليم نبيّنا العظيم « لوستروغ » الأساسية ، في الإصحاح الرابع والخمسين من كتابنا المقدّس . أما النص المتعلق بهذا الموضوع من الإصحاح فهو :

« على جميع المؤمنين الحقيقيين أن يكسروا بيضهم من الطرف الملائم لهم » .

وها ان المنفيّين قد وجدوا الآن سنداً كبيراً في قصر امبراطور « بليفوسقو » ومساعدة وتشجيعاً عظيمين من مؤيديهم عندنا . لقد مضى الآن زمن طويل على هذه الحرب الدموية بين الامبراطوريتين فقدنا خلاله أربعين سفينة رئيسية ، وعدداً أكبر من

ذلك من السفن الأصغر حجماً ، مع ثلاثين ألفاً من خيرة بحارتنا وجنودنا . وأما الضرر الذي لحق الأعداء ، فهو أكبر بكثير مما أصابنا نحن .

وعلى كل حال ، فلقد جهّزوا الآن أسطولاً كبيراً ، وهم يستعدون لشنّ هجوم علينا . وحيث أن صاحب الجلالة له ثقة كبيرة في شجاعتك ، فقد أمرني أن أطلعك على هذا القدر من شؤونه .

وانتهى كلام سكرتير الامبراطور ..

فرغبتُ إليه أن يعرض على جلالته خدماتي المتواضعة ، وأن يخبره أنه ليس لي الحق ، كأجنبي ، أن أتدخّل بين الفريقين ، لكني على استعداد تام لتعريض نفسي للخطر ، دفاعاً عن شخصه ومملكته ضد أي معتدٍ .

كانت امبراطورية « بليفوسقو » جزيرةً تقع إلى الشمال – الشرقي من ليليبوت ، بينهما قنالٌ عرضُه ثمانمئة يارد . فبعثتُ إلى الامبراطور بمشروع جهّزته أنا ، للاستيلاء على كامل أسطول العدوّ ، الذي كان يرسو في الميناء ، وجاهزاً للابحار عند أول هبة ريح .

مناسبة . وقد استفسرتُ من أكثر البحّارة خبرةً عن عمق القنال ، فابلغوني أنه حوالي ستة أقدام في منتصفه ، وأربعة أقدام في الأماكن الأخرى .

سرت باتجاه شاطىء الجزيرة الشمالي – الغربي المواجه لِـ « بليفوسقو » ، حيث أخذت أرقب الأسطول المرابط في الميناء بواسطة منظار ، وأنا مُستَلقٍ خلف تلّة . فرأيتُه يتألف من خمسين بارجة ، وعدد كبير من ناقلات الجنود . وبعد أن انتهيت من ذلك ، عدت إلى منزلي وأصدرت أمراً بإحضار كمية كبيرة من الأسلاك المتينة وعدد من قضبان الحديد .

كانت الأسلاك في سماكة خيط المصِّيص تقريباً ، أما القضبان فكانت بطول الإبرة . وقد وضعتُ كل ثلاثة أسلاك معاً لأزيد من قوتها ، كما ثَنَيْتُ كل ثلاثة قضبان معاً وجعلتها بشكل كلاّبة .

وبعد أن انتهيت من تجهيز حوالي خمسين كلاّبة من الأسلاك ، عدت إلى الشاطىء الشمالي – الغربي ، فانتزعت ملابسي ما عدا سترة جلدية ، ثم خُضت في الماء قبل نصف ساعة من ارتفاع مدّ البحر . ثم أخذت

أسبح عندما وصلت إلى منتصف القناة إلى ان وطئت رجلاي الأرض على الشاطىء الآخر ، فوصلت الأسطول في أقل من نصف ساعة . وقد بلغ الرعب لدى الأعداء ، عند رؤيتي ، حداً جعلهم يقفزون من على سفنهم ، ويفرّون سباحة إلى الشاطىء ، حيث كان ما لا يقل عن ثلاثين الف نسمة .

عندها أخذتُ عدّتي التي كنت أحملها معي ، فوضعت كلاّبة في كل ثقب كان موجوداً في مقدمة كل سفينة ، ثم جمعتُ جميع الحبال في حزمة واحدة عند طرفها الآخر . وفيما كنت منهمكاً في هذا العمل ، أطلق العدو بضعة آلاف من السهام سبّبت لي آلاماً شديدة واضطراباً كبيراً في العمل .

كنت أخشى أن يصيب أحد الأسهم عينيّ ، فافقد إحداهما أو كلتيْهما . وقد نسيت أن أضع النظارات ، التي كنت أخبئها في الجيب السرّي ، معي ، إلى جانب الأشياء الضرورية الأخرى .

وانتهيت من تثبيت جميع الكلاّبات،فأخذت أطراف الحبال ، وبدأت أجذبها : ولكن سفينة واحدة لم تتحرك

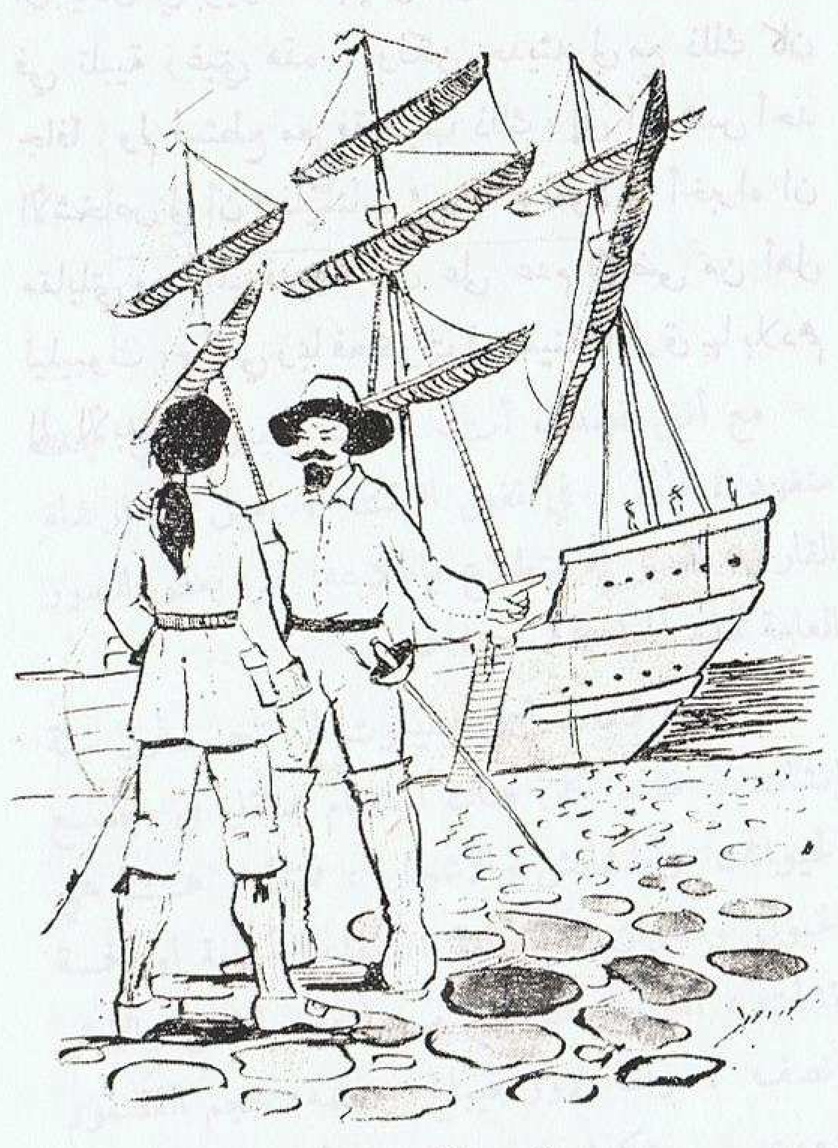
من مكانها ، إذ كانت مثبّتة بمراسيها بشكل قوي . ولم يبقَ أمامي غير طريقة واحدة : قطع حبال المراسي .

وبعد ان انتهيت من هذا العمل ، عدتُ فالتقطت أطراف الحبال المربوطة إلى الكلابات من طرفها الآخر ، وجررت خلفي خمسين بارجة بسهولة تامة .

أما أهالي « بليفوسقو » الذين لم تكن لديهم أية فكرة عما أنوي عمله ، فقد أُصيبوا بانذهالٍ شديد . لقد اعتقدوا ، بعد أن رأوني أقطع الحبال ، ان هدفي لا يتعدّى جعْلَ السفن تجنح ، أو تتصادم . ولكنّهم عندما وجدوا الاسطول بأكمله مسحوباً خلفي ، أطلقوا صرخة عظيمة من الحزن والرعب ، لا يمكن وصفها .

وابتعدت عن منطقة الخطر ، فتوقفت قليلاً لأنتزع السهام التي كانت قد انغرست في يدي ووجهي ، ثم خلعت نُظاراتي، وأخذت أنتظر ريثما يتراجع المدّ قليلاً. وبعد أن تم ذلك، خضتُ القنال وأنا أجرّ خلفي الأسطول الأسير حتى بلغت ميناء ليليبوت .

كان القنال يزداد ضحالةً عند كل خطوة أخطوها ، وفي وقت قصير وصلت إلى مكان على مدى



جلفر وربّان السفينة
التي أنقذته

السمع من الشاطىء ، فصرخت بأعلى صوتي « يعيش إمبراطور ليليبوت العظيم » . وكان جلالته في استقبالي على الشاطىء ، فاغدق عليَّ ، ومنحني لقب « نَردَق » على الفور ، وهو أعلى لقب شرف في المملكة .

وقد طلب مني الامبراطور أن أغتنم فرصة أخرى لجلب بقية الأسطول ، وكان طـموحاً ، ففكـر في تقليص « بليفوسقو » إلى إمارة صغيرة ، يحكمها نائب عنه ، وإجبار الناس على أن يكسروا البيضة حسب طريقته هو .

وقد اعترضت على ذلك بصراحة ، وقلت : « لن أكون أداة لإحضار هؤلاء الناس ليصبحوا عبيــداً أرقاء . » وعندما تم بحث القضية في مجلس الوزراء ، كان معظم الوزراء إلى جانبي .

[لقد حضر موفدون كثيرون من « بليفوسقو » إلى « ليليبوت » لعقد صلح . فزاروا جلفر ، ودعوه لزيارة جزيرتهم ، تعبيراً عن تقـديرهم للخدمة التي أداها لهم ، بإنسانيته .]

وبناء على ذلك ، فقـد رغبتُ إلى الامبراطور ،

أن يأذن لي بزيارة « بليفوسقو » . وقد كان مسروراً في تلبية رغبتي هذه ، ولكن حديثه لي مع ذلك كان جافاً . ولم أستطع معرفة سبب ذلك ، إلى أن همس أحد الأشخاص لي أن « فليمناب » و « بولفولام » أخبراه ان مقابلتي مع « المُوفدين » تدل على عدم الرضى من أهل ليليبوت ، وأنني ربما فكرت في سفينة أفارق بها بلادهم إلى الأبد .

٥

مع أنني قصدتُ أن أصف ليليبوت في بحث منفرد ، فإني ، في نفس الوقت ، أميل الى إرضاءِ القارىء المحب للاستطلاع بإطلاعِه على بعض الصور العامة لهذه المملكة . وها هو :

لما كانت قامات أهل ليليبوت لا تتجاوز ستة إنشات ، فقد كان هناك انسجام مماثل في جميع الحيوانات والحشائش والأشجار : فمثلاً ، ها هي الخيول والثيران لا يتجاوز ارتفاعها أربعة أو خمسة إنشات ، أما الخراف فهي ما بين الانش والانش ونصف ، وأما الإوز فيبلغ حجمه حجم العصفور الدوري .. وهكذا حتى نصل إلى أصغر الحيوانات جميعاً . وكان هذا بالنسبة لنظري غير مرئيٍ أبداً ،

لكن الطبيعة قد وهبت أهالي ليليبوت عيوناً نافذة تُبصر جميع الأشياء بوضوح تام ، ولكنْ ليس على مسافة بعيدة . ولكي يبرهنوا على قوة نظرهم بالنسبة للأشياء القريبة منهم ، فقد لاحظتُ طباخاً ينتف ريش قُبَّرة ، لم يكن حجمها يزيد عن حجم ذبابة ، وفتاةً تعبىء إبرة غير منظورة بخيط غير منظور من الحرير .

كانت أطول أشجار الجزيرة لا يزيد ارتفاعها عن سبعة أقدام تقريباً ، وأنا أعني هنا بعض الأشجار العملاقة في فناء القصر الملكي ، وكان بمقدوري لمس رؤوسها بكل سهولة . أما الخضار الأخرى فقد كانت أنواعها لا تكاد تَبين .

لن أذكر الآن غير القليل عن ثقافة أهالي ليليبوت ، التي ازدهرت بجميع فروعها . لكن أسلوبهم في الكتابة كان غريباً حقاً ، فهو لا يبدأ من اليسار كالأوروبيين ، ولا من اليمين كالعرب ، ولا من فوق إلى أسفل ، كالصينيين بل من الزاوية إلى الزاوية ، مثل نساء انكلترا .

ونأتي الآن إلى ديانتهم . فهم يدفنون موتاهم ورؤوسهم إلى أسفل ، لأنهم يعتقدون أنهم سوف يقومون من

الموت ثانية ، بعد إحدى عشر ألف دورة قمرية ، وفي تلك الفترة فإن الأرض ستنقلب رأساً على عقب ، وبهذه الطريقة ، فإن الموتى سوف يجدون أنفسهم واقفين على أقدامهم ، يوم القيامة . أما المتعلمون منهم فإنهم يعترفون بسخافة هذا الاعتقاد ، ولكن العادة لا زالت جارية هناك ، استجابة للعُرف الشائع .

وهناك عادات غريبة حقاً في هذه الامبراطورية . وأولها ما يتعلق بالمخبرين . ففي هذه المملكة ، نجد كل الجرائم التي تحدث ضد الدولة ، يعاقَب مرتكبها بأشد أنواع العقوبات . أما إذا تمكن شخص ما من إثبات براءته بشكل واضح أثناء المحاكمة ، فإن المُتَّهم يعاقب فوراً بموتٍ مخزٍ ، ويعطى الشخصُ البريء أربعة أضعاف ما تكبّده ، على أن يؤخذ ذلك من ممتلكات وموجودات المُتَّهم ، كتعويض عن المخاطر التي تعرض لها البريء . وإذا ظل المبلغ المقرَّر دفعه للشخص البريء ناقصاً ، فإن هذا المبلغ يُدفع من خزينة الدولة . ثم يمنحه الامبراطور علامة مميزة تدل على عطفه ، ويتم إعلان براءته في البلاد .

وهم يعتبرون التزوير جريمة أعظم من السرقة، ونادراً ما لا تكون عقوبتها الإعدام، وهم يتذرعون بقولهم: ان الحرص واليقظة، يمكن أن تحمي ممتلكات الناس من اللصوص، لكن الاستقامة ليس لها سياج.

ومع أننا نسمي عادة المكافأة والعقاب نظاماً تتطلع إليه جميع الحكومات، فلم الاحظ ان هذا المبدأ قد تم وضعه موضع التنفيذ في أية دولة باستثناء ليليبوت. فهناك: كل من تمكّنَ من تقديم إثباتٍ واضح على أنه تقيد بالقوانين ولم يخالفها أبداً طوال ثلاثين دورة قمرية، يكون له الحق في المطالبة بامتياز محدَّد، ويُمنح مبلغاً مناسباً من النقود يؤخذ من صندوق مخصَّص لذلك.. كما يحصل على لقب يضاف إلى اسمه، إنما لا ينتقل إلى ورثته من بعده.

وعندما ذكرت لهم ان قوانيننا كانت تفرَض عن طريق العقاب فقط، دون أن تاتي على ذكر المكافأة، اعتقدوا أن ذلك يعود إلى وجود خللٍ غير عادي في السياسة والعدل بين الناس. وبناء على تصوُّرهم هذا، فإن رمز العدالة في جميع محاكمهم تمثال له ستّ عيون، اثنتانِ منها من الأمام، واثنتانِ من الخلف، وواحدة

على كل جانب، ليَرمز إلى الحذَر.. وهو يحمل محفظة مفتوحة مملوءةً ذهباً في يد، وسيفاً في اليد الأخرى.

وفي اختيارهم للموظفين، يهتم أهل هذه البلاد بأخلاقيّة الشخص أكثر من اهتمامهم بكفاءته، لأنهم يعتقدون أن مقدار وعي الانسان يتطابق بشكل أو بآخر، وأن الله لم يُرِدْ أن يجعل من إدارة الشؤون العامة لُغزاً، لا يفهمه إلا عدد قليل من عباقرة الناس. كذلك فهم يعتقدون أن الصدق والعدل وضبط النفس، لَهِي في متناول كل شخص. وممارسة هذه الفضائل، مُسْتَنِدَةً بالخبرة والعزيمة الصادقة، تجعل المرء كفؤاً لخدمة بلده.

وهم يرون أن الحاجة للفضائل الأخلاقية شيء عاديّ ومن غير الضروري أن تقترن بمواهب عقلية عالية، ويخشون أن تقع الوظائف في يد أشخاص شريرين وبالغي الذكاء.. ويقدّرون أن الأضرار التي تقع بسبب الجهل، نتيجة تصرف عفيف لكنه خاطىء، لا يكون لها نتائج خطيرة على مصالح الناس، كالنتائج التي تترتب عن تصرف شخص تقوده نزعاته إلى الانحراف

والفساد ، ويملك قدراتٍ كبيرة في تدبير أموره ، وزيادة ثروته ، والدفاع عن فساده .

وعلى هذا المنوال وجدتُهم يعتقدون ان الله لن يسمح بوضع شخص غير كفؤ في وظيفة عامة ، طالما ، ان الملوك يزعمون أنهم ممثلون لله على الأرض . فإذا وقع مثل ذلك كانت مزاعم الملوك كاذبة ، فيجب التخلص منهم .

هذا والعقوقُ ، في نظرهم ، جريمة كبرى . وهم يوضحون ذلك ، بأن كل مَن يقابل المعروف بالإساءة ، يكون عدواً مشتركاً لجميع الناس .. وبناء على ذلك فلا يحق لمثل هذا الشخص أن يظل على قيد الحياة .

أما مفهومهم عن العلاقة بالأقارب والأبناء ، فهو يختلف تماماً عن مفهومنا نحن . فمن رأيهم أن الأقارب هم آخر من يجب ائتمانهم على تعليم الأبناء . ولذلك ، فإن لديهم دوراً للحضانة في كل بلد ، حيث يُجبَر الناس على إرسال أطفالهم من الجنسين لكي تتم تربيتهم وتعليمهم هناك ، عندما يبلغون عشرين دورة قمرية من عمرهم ، ويصبحون أهلاً للدراسة . والمدارس ههنا على أنواع مختلفة ، تلائم الخصائص المختلفة للجنسين .

وسأبدأ بالحديث عن دور الحضانة الخاصة بالذكور .

تُزوَّد دور حضانة الصبيان ، المخصَّصة لأولاد النبلاء ، بأساتذة ذوي كفاءات عالية مع عدد من المساعدين . أما ملابس وطعام الأطفال فيكونان بسيطَين ، وتتم تنشئتهم على مبادىء الشرف والعدالة وحب الوطن. وهم دائماً يعملون في بعض المصالح، باستثناء أوقات الطعام والنوم وتمريناتهم الرياضية. ويظل المشرفون على الدار يُلبسونهم ثيابهم إلى أن يبلغ الطفل أربع سنوات فيبدأ عندها بارتداء ملابسه بنفسه .

ويُسمح لأقارب هؤلاء الأطفال برؤيتهم مرتين في السنة ، ولا تدوم الزيارة أكثر من ساعة واحدة . كما يُسمح لهم بتقبيل الطفل عند مجيئهم ومغادرتهم ، لكن الأستاذ الذي يحضر هذه المقابلات لا يسمح لهم بأن يستخدموا تعبيراتٍ تدلّ على التدليل لأطفالهم ، أو بإحضار الهدايا والحلويات وما شابهها إليهم .

أما التعويض المفروض على كل عائلة ، مقابل تعليم طفلها ، فيتم استيفاؤه بواسطة ضباط الشرطة .

وهناك دور حضانة لأطفال الناس العاديين والتجار

وأصحاب المهن . وهي تسير على نفس الطريقة ، باستثناء الدور المخصصة للتدريب المهني فإنها تخرّج المتدرّبين وهم في سن الحادية عشرة ، بينما يظل أولاد الذوات يتدربون حتى الخامسة عشرة .

أما في دور الحضانة الخاصة ببنات الذوات والنبلاء فإنه يتم تثقيفهن مع الذكور ، إنما تقوم خادمات بإلباسهن ثيابهن ، حتى يبلغن الخامسة من عمرهن . وإذا ما اكتُشِف أن المربية حاولت تسلية الفتيات عن طريق رواية سخيفة أو مرعبة لهن ، فإنه يتم جَلدها ثلاث مرات حول المدينة ، ويُحكم عليها بالسجن لمدة سنة ، ثم تُنفى.

ولم أكتشف أي فرق في طريقة تثقيفهن ، باستثناء أن تمارين الإناث الرياضية ليست عنيفة ، وأن بعض التعليمات المعطاة لهن تتعلق بالحياة البيتية. فالمبدأ الأساسي لدى عائلات النبلاء هو أن على الزوجة أن تظل دائما رفيقاً عاقلاً ومقبولاً، إذ ليس بمقدورها أن تظل شابة إلى الأبد .

وهنا يجدر بي أن أوجه انتباه القارىء بسرد بعض الحقائق عن البيت الذي عشت فيه ههنا طوال تسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً :

لما كان لديّ ميلٌ طبيعي لأعمال الميكانيك ، فقد صنعت لنفسي طاولة وكرسياً من خشب الأشجار الموجودة حول قصر الامبراطور. وقد احتجت إلى مائتي ثوب قماش لصنع قميص واحد ، مع غطاء للطاولة وآخر للفراش .

أخذت الخيّاطات قياسي وأنا مستلقٍ على الأرض ، فكانت واحدة تقف على عنقي ، وأخرى على وسط رجليّ ، وهن يحملن خيطاً قوياً ممدوداً .. وكل واحدة تمسك بأحد طرفيه ، فيما كانت واحدة ثالثة تقيس طول الحبل بمسطرةٍ طولها إنش واحد . ثم أخذن قياس إبهامي الأيمن ، ولم يحتجْن لأي شيء آخر. وبعملية حسابية ، عرفن إن لفتّين على الإبهام تعادل لفة واحدة على الرسغ ، وبفضل قميصي الذي فرشته على الأرض أمامهن أتممن خياطة قميص جديد لي .

وقد تم استخدام ثلاثمئة خيّاط بنفس الطريقة لخياطة الملابس لي، ولكنهم كان لهم طريقة أخرى في أخذ قياسي. فقد ركعت على الأرض ، ثم أحضروا سلّماً ووضعوه من الأرض حتى عنقي ، ثم صعد أحدهم عليه ، وأسقط حبلاً من رقبتي إلى الأرض . وكان هذا كافياً لقياس سترتي .

أما خصري وذراعي فقد قمت بقياسها بنفسي .

كان ثلاثمئة طباخ يهيئون طعامي في أكواخ صغيرة أقيمت حول البيت ، يعيشون فيها مع عائلاتهم . وكان كل واحد يجهّز لي صحنين من الطعام . وعندما كنت أجلس لتناول الطعام ، كنت أتناول عشرين رجلاً وأضعهم على الطاولة ، فيما يقف مئة منهم أسفلَها . وكان البعض منهم يحملون « جاطات » اللحم ، والبعض الآخر براميلَ النبيذ فكان الخدم الذين يقفون على الطاولة يرفعونها بواسطة بعض الحبال ، مثلما ننشل نحن دلو الماء من البئر .

كان في الصحن الواحد لقمة واحدة ، وفي البرميل جرعة واحدة . ولحم الخروف عندهم كلحم الخروف عندنا ، أما لحم البقر فكان ممتازاً . وقد أكلت قطعة لحم من خصر البقرة. وكانت كبيرة إلى الحد الذي اضطرني ان آكلها بثلاث لقمات . وقد دُهش الخدم لرؤيتي وأنا آكلها ، اللحمَ والعظم معاً ، مثلما نفعل في انكلترا عندما ناكل فخذ القنبرة . أما الإوزّ وديوكُ الحبَش عندهم فكثيراً ما كنت آكل الواحد منها بلقمة واحدة . ويجب أن أعترف هنا بأن طعمها أطيب بكثير من عندنا . أما

الدجاج، فكان يمكنني التقاط عشرين منها بطرف مديتي.

وذات يوم أبلغني صاحب الجلالة عن رغبته في مشاركتي الطعام برفقة أفراد العائلة ، وبالطبع فقد رحّبت بتلبية رغبته هذه . وعندما حضر مع مرافقيه ، أجلستُهم على كرسيّ فوق الطاولة ، فيما كان الحراس يحيطون بهم. وكان « فيلمناب » وكيل الخزانة، مع مرافقيه من ضمن حاشية الامبراطور . وقد لاحظتُ انه كان ينظر إليّ بوجه عابس ، فكنت أتجاهل نظراته .

كان لديّ أسباب خاصة جعلتني أعتقد ان زيارة صاحب الجلالة هذه قد منحت « فيلمناب » فرصة الإساءة إليّ أمام سيده . فقد ظل هذا الوزير عدوّي الخفيّ ، رغم أنه كان في العلَن يلاطفني بشكل يتجاوز طبيعته النكدة . وقد قدّم للإمبراطور تقريراً عن الحالة السيئة التي وصلتْ إليها مالية الدولة ، وأنه اضطر إلى ان يقترض المال بفائدة كبيرة ، لأنني كلّفت الدولة ما يزيد عن مليون ونصف « سبراغ » (وهي أكبر قطعة ذهبية لديهم) واقترحَ على الامبراطور أن يستغني عني في أول فرصة ممكنة توفيراً لهذه المبالغ الباهظة .

٦

قبل أن أبدأ الحديث عن كيفية مغادرتي هــذه المملكة ، لابدّ وأن أخبر القارىء عن مكيدة خاصة كانت تدبّر لي منذ شهرين تقريباً .

عندما كنت أستعد لزيارة امبراطور « بليفوسقو » ، حضر إلى بيـتي شخص رفيع المنصب في القصر ، وطلب مقابلتي دون أن يكشف عن اسمه . وبعد أن صرفت حاملَيْ الكرسي الذي كان يجلس عليه ، وضعتُ الكرسي وهو يجلس فوقها ، في جيب سترتي ، ثم أمرت خدمي الأمناء أن يقولوا إنني متوعّك الصحة وقد ذهبت إلى النوم . وبعد تبادل التحيّات المعتادة ، سألته عن سبب تشريفي بزيارته ، فطلب مني أن

أستمع إلى حديثه بصبر ، بخصوص قضية هامة جداً تتعلق بشرفي وحياتي . وكان حديثه ما يلي :

يجب أن تعلم ، أن عدداً كبيراً من الاجتماعات الوزارية قد عُقدت مؤخراً ، وكلّها تتعلق بتقرير مصيرك . وقبل يومين فقط توّصل صاحب الجلالة إلى حلٍّ كامل لمشكلتك هذه .

ومن باب الاعتراف بالجميل بالخدمات العديدة التي أدّيتَها لي ، فقد حصلتُ على تفاصيل كاملة لهـذه الجلسات ، وعلى نسخة بمواد القرار الذي تم اتخاذُه . وهاأنذا أبين لك مواد الاتهام المدرجة في الوثيقة .

« وثيقة الاتهام ضد « كوينبوس فليسترين » الرجل ـ الجبل .

المادة الأولى : ـ

ان كوينبوس المذكور ، كان قد أحضر أسطول امبراطورية « بليفوسقو » إلى الميناء ، ثم أمَره صاحبُ الجـلالة الامبراطور أن يستولي على ما تبقّى من قطع ذلك الأسطول ، وتخفيض تلك الامبراطورية إلى مرتبة إقليم ،

يحكمـــهُ نائب عن امبراطورية ليليبوت ،
والقضاء على جميع سكان تلك الامبراطورية ..
لكنّ ، فليسترين المذكور ، طلب إعفاءه من
المهمة المذكورة بحجّة عـــدم رغبته في دفع
ضميره للقضاء على حياة أناس أبرياء .

المادة الثانية :

ان بعض المبعوثين من « بليفوسقو »
وصلوا إلى هنا ، للشروع في مفاوضات صلحٍ
في قصر جلالته ، لكنّ فليسترين المذكور ،
ساعد وشجّع المبعوثين المذكورين ، وهو يعلم
أنهم خدمُ أميرٍ ناصبَ الامبراطور عداء
مكشوفاً ، وكان في حالة حرب معه .

المادة الثالثة :

ان المذكور ، يجهز نفسه الآن ، بشكل
يتناقض مع واجب الإنسان المخلص لوطنه ،
للقيام برحلة إلى قصر امبراطور بليفوسقو ،
بعد ان حصل على إذنٍ شفهي من صاحب
الجـــلالة للقيام بها . وفي ظل هذا التصريح

فقد صمم بكل خيانة أن يقوم بهذه الرحلة ،
فيساعد بذلك ، ويشجّع ، ويُقوّي إمبراطور
بليفوسقو ، ذلك العدو الذي هو في حرب
مكشوفة مع صاحب الجـــلالة امبراطور
ليليبوت .

كان هناك بنود أخرى ، ولكن هذه كانت أهمها ،
وقد قرأت لك ملخصاً عنها .

وخلال ثلاثة أيام ، فإن صديقك السكرتير ، سوف
يؤمَر بالحضور إلى هنا وقراءة وثيقة الاتهام أمامك ،
ثم يشير إلى تساهل جلالته ومجلس وزرائه ، حيث
سيُحكَم عليك فقط بأن تفقد عينيك . وليس هناك
شكٌّ لدى جلالته في أنك ستخضع لهذه العملية بكل
تواضع . وسوف يكون هناك عشرون جرّاحاً لكي
يتأكدوا من أن العملية ستتم بشكل جيد ، وذلك عن
طريق إطلاق سهام حادة الأطراف في داخـــل بؤبؤ
العين فيما تكون أنت مستلقياً على الأرض .

سأترك لك أن تتخذ ما يناسب من إجراءات ، ببُعْدِ
نظرك وحصافتك . ولكي أتفادى الشبهة يجب أن

أعود إلى القصر على الفور ، بنفس السرّيّة التي قدمتُ بها إليك . »

وبعد أن رحل سعادته ، بقيتُ وحيداً ، تراودني الكثير من الشكوك . وفي النهاية صممتُ على العمل سريعاً للنجاة من مثل هذا المصير المظلم الذي كان ينتظرني على يدي امبراطور ليليبوت .

لذلك استوليت على إحــدى البوارج الحربية ، فوضعت ملابسي فيها ، ثم خُضت البحر وسبحت معها إلى بليفوسقو . وقد حضر جلالةُ الامبراطور والامبراطورة وحاشيتهما لاستقبالي .

نزل الامبراطور ومرافقــوه عن جيادهم ، كما هبطت الامبراطورة وحاشــيتُها من عرباتهن ، ولم ألاحظ انهم كانوا في حالة رعب أو خوف . استلقيت على الأرض لتقبيل جلالته وتقبيل يد الامبراطورة . ثم قلت لجلالته : لقد حضرتُ حسب الوعــد الذي قطعته على نفسي ، وبترخيصٍ من سيدي الامبراطور . وإنه لشرفٌ عظيم لي ان أمتع نظري بمثل هذه المملكة

العظيمة ، كما يسرّني أن أعرض القيام بأية خــدمة أقدرُ عليها إثباتاً لولائي للمليكي .

وقد تفاديتُ ذكر أي شيء عن العار الذي لحق بي هناك ، حيث لم أكن أملك معلوماتٍ ثابتة عما كان قد أخبرني به موظف القصر .

لن أزعج القارىء بوصف الاستقبال الفخم الذي قوبلتُ به في هذا القصر ، ولا المصاعب التي واجهتها من ناحية العثور على بيت وفراش ، مما اضطرّني في النهاية إلى أن أستلقي على الأرض ، وألفَّ نفسي بشرشفي .

وبعد ثلاثة أيام من وصولي إلى مملكة بليفوسقو ، كنت أسير ، حباً للاستطلاع ، على طرف الشاطىء الشمالي ــ الغربي للجزيرة . وهناك رأيت على بعد نصف فرسخ تقريباً ، ما يشبه قارباً مقلوباً . فنزعتُ حذائي وجواربي ، وخضت في الماء مسافة ثلاثمئة ياردة تقريباً . وكان هذا الشيء يقترب تدريجياً بفعــل الأمواج . وقد تبيّنتُ انه كان أحد القوارب ، الذي

لا بد وان يكون قد سقط من إحدى السفن بطريقة أو باخرى .

وهكذا عدتُ على الفور إلى المدينة وطلبت من صاحب الجلالة الامبراطور أن يقرضني عشرين مركباً من أطول مراكبه ، مع ثلاثة آلاف بحار تحت قيادة نائب أميرال البحر .

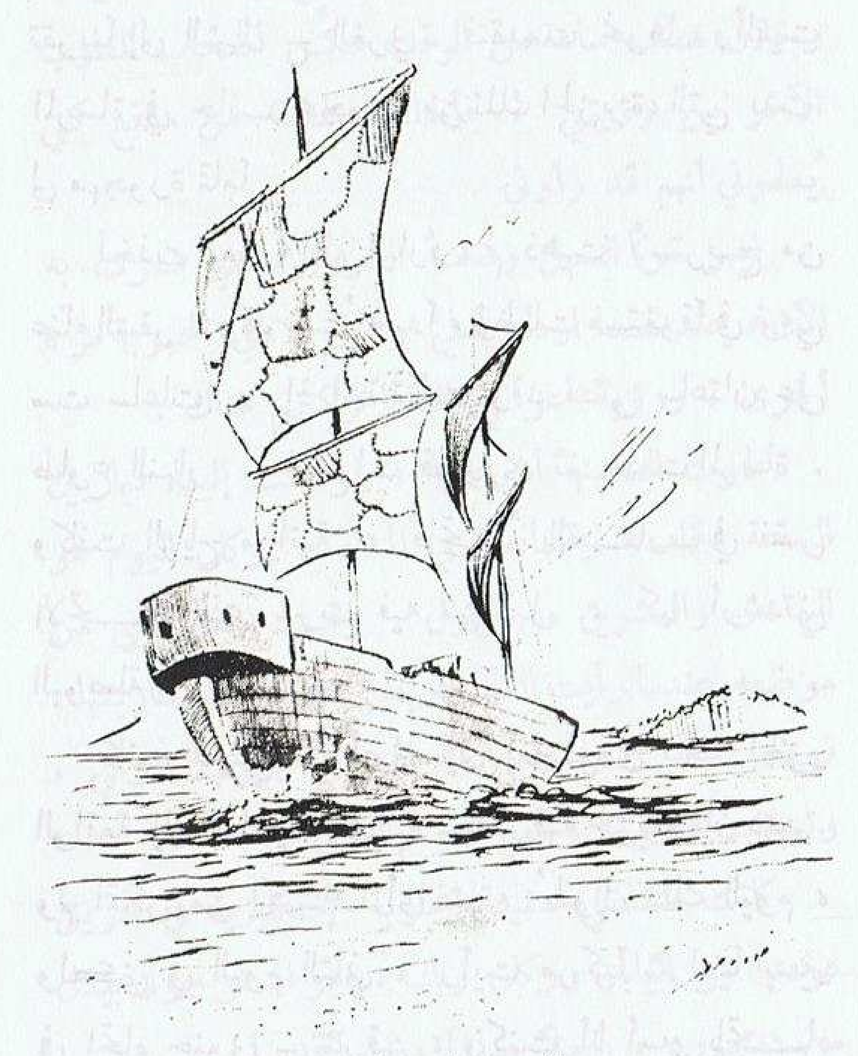
(سبح جلفر إلى القارب ، وبعد عمل شاق ، أحضره إلى الشاطىء بمساعده أهالي بليفوسقو .)

وفي نفس الوقت ، بعث امبراطور ليليبوت أمراً إلى امبراطور بليفوسقو لكي يقيّد جلفر من يديه ورجليه ، كما يقيّد الخونة ، ويعيده إلى ليليبوت . وقد رد امبراطور بليفوسقو على ذلك بقوله ، انه يكون من الأفضل لكليهما أن يتخلصا من مثل هذا الوحش .. وهكذا فقد ساعد جلفر في تجهيز القارب وتموينه.)

استخدمتُ خمسمئة رجل لصنع الأشرعة للقارب ، وقد عملوا حسب التعليمات التي كنت أصدرها اليهم ، بعد خياطة ثلاث عشرة قطعة ، من أقوى القماش لديهم ، بعضها مع بعض . وقد واجهتُ صعوبات كبيرة في صنع الحبال والأسلاك ، وفي النهاية ثنيت ما يقارب الثلاثين من أسمك وأقوى الحبال التي كانت موجودة لديهم . وبعد بحث طويل فوق الشاطىء عثرت على حجر كبير استخدمته كمرساة .

أما من أجل تشحيم القارب فقد استخدمت دهن ثلاثمئة من الأبقار ، وأما الجاذيف والصواري فقد صنعتها ، بجهود شاق وبمساعدة النجارين ، من أشجار كبيرة اقتطعتُها من الغابة .

وفي حوالي مدة شهر واحد ، وعندما أصبح كل شيء جاهزاً ، بعثت أطلب الأمر من جلالته ، وأستأذن منه مودعاً . فخرج الامبراطور مع العائلة المالكة من القصر . فاستلقيت على وجهي لأقبّل يده ، التي قدّمها لي بكل عظمة . وهكذا فعلت الامبراطورة وأمراء البيت المالك . وقد أهداني جلالته خمسين



قارب جلفر الجديد
وشراعه المرقّع

محفظة تحتوي كلٌّ منها على مائتي « سبراغ » ، بالإضافة إلى صورته كاملة ، التي وضعتها على الفور في أحد قفازاتي ، حتى لا تتضرر . أما احتفالات وداعي التي أُقيمت فقد كانت كثيرة جداً ، ولا داعي لإزعاج القارىء بوصفها الآن .

تموّنت بمائتي ثور ، وثلاثمئة خروف ، وبكمية كافية من الخبز ، ومثلها من اللحم المهيأ للأكل . كما أخذت معي ستّ بقرات وثورين أحياء ، مع الكثير من النعاج والحملان ، بقصد حملها إلى بلدي . كذلك اصطحبتُ معي كيساً من حبوب الذرة لإطعامها على ظهر القارب . وكان يسرّني جداً لو تمكنت من اصطحاب عدد من أهالي البلاد معي ، ولكن هذا شيء لن يسمح به الامبراطور أبداً ، كما وثق جلالته بكلمة شرف مني أن لا آخذ أحداً من رعاياه .

وهكذا ، وبعد أن أصبح كل شيء جاهزاً ، أبحرتُ من جزيرة بليفوسقو في اليوم الرابع والعشرين من شهر أيلول سنة ١٧٠١ ، في الساعة السادسة صباحاً . وعندما أصبحت على بعد أربعة فراسخ باتجاه الشمال ،

كانت الريح تسير باتجاه – شرقي . وفي الساعة السادسة
مساءً رأيت جزيرة صغيرة على بعد نصف فرسخ
تقريباً إلى الشمال – الغربي . فتقدمت نحوها ، وألقيت
المرساة في جانب محجوب من تلك الجزيرة، التي بدت
لي مهجورة تماماً .

أخذت بعض الماء البارد ، ثم ذهبت لأستريح من
عناء السفر . وقد نِمتُ جيداً ، وظللت مستغرقاً في نومي
ست ساعات ، إذ استيقظت وقد مضى ساعتان على
طلوع النهار . فتناولت فطوري ثم رفعت المرساة .
وكانت الرياح مواتية ، فاتجهتُ بالقارب في نفس
الاتجاه الذي سرتُ فيه من قبل ، كما أرشدتني
البوصلة .

كانت غايتي أن أصل إلى إحدى تلك الجزر
الواقعة إلى الناحية الشمالية – الشرقية لجزيرة فان ديمن .
ولم أتمكن من اكتشاف أي شيء طُوال ذلك اليوم ،
ولكني في اليوم الثاني ، رأيت مركباً شراعياً يسير
في اتجاه جنوبي – شرقي ، وكنت أنا أسير باتجاه
الشرق . فصرخت منادياً أهل ذلك المركب .. لكنّي لم

أحصل على جواب . ومع ذلك فقد وجدت نفسي
أكثر قرباً منه ، بسبب خفة الرياح في ذلك الحين .
وخلال نصف ساعة من الوقت تمكّن أصحاب القارب
الآخر من رؤيتي ، فأطلقوا طلقة من مدفع كي
يُعلموني أنهم قد رأوني .

ليس من السهل وصفُ السرور الذي شعرت به
الآن ، عندما ازداد أملي برؤية بلادي المحبوبة مرّة
أخرى ، ورؤية أعزائي الذين تركتهم هناك .

طوت السفينة أشرعتها ، فوصلت إليها فيما بين
الساعة الخامسة والسادسة في المساء . وكان اليوم هو
السادس والعشرين من أيلول . وقد قفز قلبي من
موضعه عندما رأيت العلم البريطاني يخفق على ساريتها ،
فوضعت البقرات والخراف في جيوب سترتي ،
وتسلقت السفينة ومعي جميع مؤني .

كانت منقذتي سفينة تجارية إنكليزية في طريق
عودتها من اليابان ، وكان رُبانها ، وهو المستر جون بيدل
من ديتفورد ، رجلاً مهذباً وبحاراً قديراً .

كنا الآن إلى جنوب خط العرض المنشود . وكان هناك

حوالى خمسين رجلاً ، وهنا التقيت مع زميل قديم لي ، اسمه بيتر وليامس ، الذي زكّاني لدى الربان . وقد عاملني هذا السيدُ بكلّ لطف ، وأبدى رغبته في معرفة المكان الذي أتيت منه ، فأخبرته بذلك . لكنه لم يصدّق ما رويته له ، واعتقدَ ان المخاطر التي تعرضتُ لها قد أثّرتْ في عقلي . وعندها أخرجتُ الماشية والخراف من جيبي ، وأقنعته بصحة روايتي ، بعد ان كانت الدهشة قد استولت عليه تماماً .

وهكذا ، وصلنا إلى إقليم المرتفعات في انكلترا يوم ١٣ نيسان ١٧٠٢ . وخلال المدة التي بقيتها في انكلترا حصلت على أرباح جيدة عن طريق عرض ماشيتي على الكثيرين من الناس : وقبل أن أبدأ رحلتي الثانية بعتُها بمبلغ ستمئة جنيه .

بقيت مع زوجتي وعائلتي مدة شهرين فقط ، إذ أن رغبتي النهمة دائماً لرؤية بلاد أجنبية لم تُمكّنني من البقاء مدة أطول من ذلك . فتركتُ لزوجتي مبلغ الف وخمسمائة جنيه ، واستأجرت لها بيتاً جميلاً في « ريدريف » . أما ما تبقى لديّ من المال ، فقد حملت

معي قسماً منه نقداً ، والقسم الاخر بضاعة ، على أمل أن أزيد من ثروتي .

كان عمي جون قد ترك لي قطعة أرض قرب « ايبينج » ، كان ريعها يبلغ ثلاثين جنيهاً في السنة ، وكان لدي عقد إيجار طويل المدى لـ « بلاك بول » ، في « فيتر لاين » ، يدرُّ عليَّ مبلغاً مماثلاً . لذا لم أكن في خطر أن تموت عائلتي جوعاً . كان ابني جوني ، الذي سُمي باسم عمه ، في المدرسة ، وكان ولداً نجيباً ، أما ابنتي بيتي ، التي كانت قد تزوجت منذ وقت وأصبح لديها أطفال ، فقد كانت عندئذ تشتغل بشغل الإبرة .

وهكذا ودّعت زوجتي وأولادي والدموع تنصبّ على خدّي ، وذهبت إلى ظهر الباخرة ، « ادفنتشر » ، وهي باخرة تجارية حمولتها ٣٠٠ طن ، كانت متجهة إلى « سورات » وربانها هو الكابتن جون نيقولاس ، من ليفربول .

رحلة الى بروبدينجناج

١

ظلت الرياح جيدة حتى وصلنا راس الرجاء الصالح ، وهناك ألقت السفينة مرساتها للتزود بالماء . وأثناء تفقد السفينة عثرنا على شق كانت المياه تتسرب منه ، فاضطررنا إلى إفراغها من الحمولة وقضاء فصل الشتاء هناك . ومما زاد الحالة سوءاً أن أصيب الربان بالملاريا .

واصلنا رحلتنا بعد ذلك ، دون أن نواجـه أية مصاعب ، إلى ان اجتزنا جزيرة مدغشقر ، ثم بدأت الرياح تهب بشكل عنيف ابتداء من ١٩ نيسان . وقد ظلّت كذلك طوال عشرين يوماً متتـالية ، دفعت بالسفينة خلالها قليلاً باتجاه شمال جزر مَلَقَة ، ثم خفت

حدتها حتى أصبحت هادئة تماماً . وقـد جعلني ذلك أشعر بالسرور ، ولكن الربان لم ينخدع بهذا الهدوء ، بل أمرنا جميعاً أن نستعد لمواجهة عاصفة مرتقبة . وقد صحّ ما توقعه تماماً . فقد هبت العاصفة في اليوم التالي .

وعندما وجدنا حدة الرياح آخذة بالارتفاع أمسكنا باعواد الأشرعة ، ووقفنا بالقرب من الشراع الأمامي ونحن على استعداد لدعمه فيما لو احتاج الأمر إلى ذلك . وكانت أمواج البحر العاتية تتلاطم وكأنها تودّ ابتلاع السفينة . ثم تلى هذه العاصفة رياح عنيفة دفعت بالسفينة مسافة خمسمئة فرسخ باتجاه الشرق ، حتى ان أقدم بحار في السفينة لم يعد بمستطاعه تحديد مكانها .

كانت مؤونتنا من الطعام لا زالت كافية ، والسفينة صامدة أمام العاصفة ، ولم يكن ينقصنا غير مياه الشرب . فوجدنا انه من الأفضل أن نواصل السير في نفس الاتجاه الذي كنا نسير فيه ، بدلاً عن تحويل السفينة نحـو الشمال ، حيث كان من الممكن أن يؤدي بنا ذلك إلى الأجزاء الشمالية الغربية من المحيط المتجمد .

وفي يوم ١٦ حزيران ، ١٧٠٣ ، تبين أحد المراقبين

في السفينة ، البر . وفي اليوم التالي ظهرت أمامنا جزيرة عظيمة في الجنوب ، وبدا هناك لسان أرضي في البحر ، وجدول ضحل لا يمكن لأية سفينة تزيد حمولتها عن مائة طن أن تسير فيه .

أوقفنا السفينة على بعد فرسخ من الشاطىء ، وذهب بعضُنا لجلب الماء من الجزيرة . ولما وصلنا البرَّ ، لم نعثر على نهر ولا نبع ، فأخذ الرجال يجوبون الشاطىء لعلَّهم يكتشفون بعض الماء ، أما أنا فقد سرت في الاتجاه المقابل ، ومن هناك بدت لي المنطقة صخرية جرداء .

أحسست بالتعب في هذا الوقت ، لذلك استدرت كي أعود إلى القارب . وفيما أنا في طريق العودة رأيت ان الرجال قد سبقوني إلى القارب في طريقهم إلى السفينة . وقد لاحظت أنهم يجدِّفون بقوة ، وكأن الشيطان في أعقابهم . فعجبت للأمر ، وكنت على وشك مناداتهم عندما رأيت مخلوقاً بالغ الضخامة كان يلاحقهم في البحر ، بكل ما لديه من قوة .

ولما كان رجالنا قد سبقوه بنصف فرسخ على الأقل ، فإن هذا العملاق فشِل في اللحاق بهم . لم أعد أجرؤ

على البقاء حيث أنا ، فأخذت أجري مبتعداً على نفس الطريق الذي سرتُ عليه من قبل ، حتى وصلت هضبة عالية ، استطعت منها أن أتبين المنطقة بشكل أفضل .

كانت المنطقة بأسرها مزروعة ، وقد أثار دهشتي أن ارتفاع الحشائش هنك بلغ حوالي عشرين قدماً .

كان الوقت موسم الحصاد ، وكانت كِيزان الذرة ترتفع أربعين قدماً عن الأرض . وقد بقيت سائراً طوال ساعة قبل أن وصلت نهاية الحقل ، الذي كان مطوّقاً بسياج يبلغ ارتفاعه مئة وعشرين قدماً . أما الأشجار فقد كانت عالية جداً بحيث لم أتمكن من تحديد ارتفاعها .

هناك وجدت ممراً يؤدي إلى حقل آخر ، ويتألف من أربع درجات يبلغ ارتفاع الواحدة منها ستة أقدام ، أما ارتفاع أعلاها فكان لا يقل عن عشرين قدماً .

وفيما أنا أفتش عن فجوة في السياج أستطيع المرور منها ، رأيت أحد السكان في الحقل المجاور . كان حجمه يوازي حجم الشخص الذي لاحقَ البحّارة . وقد بدا طوله مستدقاً مثل البرج ، وكانت كل خطوة من خطواته تبلغ عشر ياردات . وما إن رأيته حتى شعرت بالخوف

والدهشة معاً ، فرحت أجري هنا وهناك وأنا أحاول العثور على مكان مناسب أختبيء فيه .

وما لبث العملاق أن أخذ ينادي بصوت يعلو كثيراً عن صوت البوق، ويتردد صداه مثل هزيم الرعد . إذ ذاك أقبلَ نحوه سبعة أشخاصٍ يماثلونه ضخامة ، وكان كلُّ واحد منهم يحمل منجلاً في يده . ولم يكونوا في اناقة الرجل الأول ، بل بدا وكأنهم من عماله أو خدمه ، إذ أنهم ما انتهوا من سماع كلامه حتى بدأوا يحصُدون الذرة في الحقل الذي كنت مختبئاً فيه .

بقيت مختفياً على مسافة بعيدة ، ولكني كنت مجبراً على الانتقال من مكان إلى آخر بصورة مستمرة، وبصعوبة فائقة ، حتى وصلت إلى بقعة في الحقل كانت سُويقات الذرة فيها منحنية على الأرض بفعل الأمطار والرياح .

عند هذه النقطة لم يعد بمقدوري أن أتقدم خطوة واحدة أخرى ، فقد كانت سويقات الذرة متشابكة مع بعضها ، وكانت شراشيب عرانيس الذرة قاسية ومدبَّبة تكاد تخترق ملابسي وتنغرز في جسمي .

كنت قد أصبحت عندئذٍ في حالة نفسية لا أُحسَد

عليها ، وقد استولى عليّ الرعب والحزن ، حتى لم أعد آبهُ لشيء ، وكنت أتمنى من كل قلبي أن تكون هذه الأيام هي آخر أيام حياتي . ثم أخذت أبكي حسرةً على زوجتي الأرملة وأطفالي اليتامى . وفيما أنا على هذه الحال، سمعتُ خطوات أحد الحصّادين تقترب ، فأخذت أفكر فيما سوف يحدث لي لو أنه تقدم خطوة أخرى .. لا بدَّ عندها أن يدوسني برِجليه فيقضي عليّ .

وما إن بدأ يتحرك مرة أخرى ، حتى انطلقت من فمي صرخة ثاقبة فيها كل الرعب الذي اجتاحني آنذاك . ولا بد أن يكون المارد قد سمع صرختي ، إذ انه توقف عن سيره وأخذ ينظر إلى أسفل . وما لبث ان وقع نظره عليَّ . وقد وقف لفترة ، صامتاً لا يبدى حركة ، ثم تقدم مني وأمسكني من وسطي بطرفي أصابعه ، ثم رفعني إلى مسافة ٣ ياردات أمام عينيه ، وكأنه كان يحاول رؤية شكلي بوضوحٍ تام .

وقد حزرت ما كان يقصده ، فقررت أن لا أقاوم طالما بقيت معلقاً في الهواء ، على ارتفاع ستين قدماً عن الأرض ، خوفاً من أن أسقط من بين يديه فاتحطم .

كنت أنتظر أن يقذفني إلى الأرض ، في كل لحظة ، لكن حظي الحسن لم يكن قد فارقني حتى هذه اللحظة . فقد رأيت السرور يبدو على وجهه بعد ان سمع صوتي ورأى حركاتي التي كنت أقوم بها ، وأخذ ينظر إلي كشيء عجيب ما رأى مثله من قبل .

ولقد تشجعتُ قليلاً من هذا التطور ، فجعلت أحوّل نظري إلى جواني ، لكي أُفهمه ، بشكل أو بآخر ، مدى الألم الذي كنت أحسّ به من جرّاء ضغط أصابعه على جسمي . وبدا لي أنه فهم ما كنت أهدف إليه ، فأزاح طرف سترته ، ووضعني داخلها برفق ، ثم عاد بي جارياً إلى سيّده . وكان هذا السيد هو الشخص الذي رأيته في بادىء الأمر ، والذي كان أحد أصحاب المزارع المرموقين في المنطقة .

وما أن فرغ المزارع من الاستماع إلى قصة خادمه ، حتى أخذ قشّة صغيرة وقلّبَ بها طرف سترتي ، وقد بدا عليه الاعتقاد بأنها نوع من الغطاء وهبتني إياه الطبيعة . ثم إنه جمع مساعديه حوله ، وأخذ يستفسر منهم عما إذا كانوا قد صادفوا من قبلُ مخلوقاً صغيراً مثلي في الحقول .

ولما أجابوه بالنفي ، أنزلني برفق إلى الأرض ، وكأنني حيوان أسيرُ على أربع . ولكني نهضت سريعاً وأخذت أسير ببطءٍ ، إلى الخلف وإلى الأمام ، لكي أجعل هؤلاء الناس يدركون أنه ليست لديَّ رغبة في الفرار.

خلعت قبّعتي عن رأسي ، وانحنيت قليلاً أمام المزارع محيياً إياه ، ثم ركعت على ركبتيّ ورفعت يدي ونظري إليه ، ونطقت ببضع كلمات بأعلى صوت ممكن ، أخرجتُ بعدها من جيبي محفظة مملوءة بالذهب وقدّمتها له بكل تواضع . ولقد تناول المحفظةَ ووضعها في راحة يده ، ثم قرّبها من عينيه ليتبين ما هي ، ثم أخذ يقلّبها بطرف دبوس كان قد أخرجه من داخل كُمِّه ، ولكنه لم يتمكن من أن يفهم أي شيء . وعندها أشرتُ إليه لكي يضع يده على الأرض. وبعد أن فعل ذلك ، أخذتُ المحفظة وفتحتها ، ثم أفرغت ما كان بها في راحة يده : ستّ قطع ذهبية اسبانية ، وعشرين أو ثلاثين قطعة أخرى مختلفة الأحجام . وقد رأيته يبلّل إصبع يده الصغير بلسانه ، ثم يتناول أكبر قطعة ، ويُتبعها بأخرى . ولكن بدا عليه الجهل

التام بهذه القطع . فأشار لي أن أعيدها هي والمحفظة
إلى جيبي .

بدا عليه الآن الاقتناع بأنني مخلوق عاقل ، فأخذ
يحدّثني ، لكن صوته كان يخرق أذني مثل طاحونة
الماء . ومع ذلك فقد كانت كلماته واضحة تماماً . وقد
رددتُ عليه بأعلى صوتي وبلغات متعددة ، لكي يسمع
ويفهم .. لكن بدون جدوى ، فالواحد منا لم يكن
يفهم لغة الآخر .

وبعدما أرسل العمالَ إلى الحقل ، أخرج من جيبه
منديلاً ، وفرشه على كفّه اليسرى ، ثم أنزلها إلى
الأرض وأشار لي أن أتقدم وأقف في راحة يده .
فوجدت أنه من واجبي إطاعته ، لكني تمددت في
راحته خوفاً من السقوط .

على هذه الصورة حملني إلى بيته .. وعندما وصل
إلى هناك ، دعا زوجته لتتفرّج عليّ ، لكنها أطلقت
صرخة فزع وانطلقت هاربة ، مثلما تفعل نساء انكلترا
عند رؤيتهن للعقرب أو الضفدع . ولكنها تقبّلت

وجودي في البيت بعد فترة قصيرة ، وحينما رأت
سلوكي الحسن وسرعة استجابتي لإشارات زوجها ، بل
إنها أصبحت راضية عليّ تدريجياً .

كان الوقت ظهراً ، وقد أحضر أحدُ الخدم طعام
الغداء ، وكان يتألف من طبق عامر باللحم ، قُطره
أربعة وعشرون قدماً . كان هناك المزارع وزوجته
وأطفاله الثلاثة وجدّته . وبعد أن جلسوا ، وضعني
سيدي على مسافة غير بعيدة منه على المائدة التي كانت
ترتفع عن الأرض ثلاثين قدماً . وتناولت الزوجة
قطعة من اللحم وقطّعتها ، ثم فتّتت بعض الخبز في
صينية خشبية ووضعتها أمامي .

انحنيت شاكراً ، ثم تناولت السكين والشوكة ،
وبدأت أتناول طعامي . فأخذوا يراقبونني وهم في
حالة كبيرة من السرور . وبعد فترة أرسلت السيدة
الخادمة لإحضار فنجان صغير للشرب ، وكان يتسع
لحوالي غالونين من الماء ، فملأته وقدمته لي لكي أشرب .

أمسكت بهذا الإناء بكلتا يدي ، في صعوبة فائقة ، ثم
شربت منه نخب صحة السيدة ، وأنا أعبّر عن امتناني



جلفر يلعب به الطفل العملاق

العميق باللغة الانكليزية وبصوت شديد الارتفاع ، مما جعلهم يغرقون في الضحك ، حتى إنني كدت أصاب بالصمم من ضحكاتهم الصاخبة .

أشار لي سيدي أن أقترب نحو صينيته التي كان يتناول طعامه منها ، وفيما كنت أسير فوق الطاولة مذهولاً ، تعثرتُ بقشرة ووقعت على وجهي ، ولكني لم أُصب بأي أذى ، فنهضت من سقطتي على الفور . ولما رأيت الاهتمام الذي بدا على وجوه هؤلاء الطيبين ، رفعتُ يدي فلوّحت بها احتراماً وتحية لهم .

وفيما كان الغداء في منتصفه ، قفزت قطة سيدتي المدلَّلة ، وجلست على منكبيها ، فسمعت خلفي صوتاً يشبه صوت اثني عشر نولٍ للحياكة وهي تعمل . وكان هذا صوتَ خرخرة تلك القطة التي كان حجمها يوازي ثلاثة أضعاف حجم الثور .

كانت ملامحها تدل على الشراسة ، وقد تملَّكني الغيظ عند رؤيتها ، رغم انني كنت أقف في أقصى طرف من المائدة ، وعلى بعد خمسين قدماً . أما سيدتي

فقد كانت تمسك بها بحزم ، خوفاً من أن تهاجمني . ولم يكن هنـاك أي مبررٍ للخوف ، إذ أن القطة لم تهتم بي أبداً عندما أجلسني سيدي على بعـــد ثلاثة ياردات منها .

وهكذا فقد أخذتُ أسير أمامهـا جيئةً وذهاباً ، حتى إنني اقتربت منها ذات مرة إلى مسافـة نصف ياردة . وما أن رأتني أمامها ، حتى تراجعت مذعورة إلى الخلف . أما بالنسبة للكلاب ، فقد كنت أقلّ خوفاً منها . وقد دخل ثلاثة أو أربعة كلاب إلى الغرفة ، كما هي العادة في بيوت المزارعين . كان واحد مـن هذه الكلاب كلب صيد ، وكان في ضخامته قَدْرَ ٤ أفيال مجتمعة .

وفيما كان الغداء في نهايته تقريباً ، دخلت مربية تحمل طفلاً ما أن رآني حتى أخذ في الصراخ ، مثلما يصرخ الأطفال عندما يرغبون في الحصول على لعبة يريدونها . وبغية إسكاته فقد أخذتني والدته ووضعتني أمامه . وما أن وجدني على مقربة منه حتى أمسك بي من وسطي بسرعة ثم أخذ رأسي ووضعه في فمه .

أخذتُ عندئذ في الصراخ بصوت مرتفع أوقع الرعبَ في قلب الطفل الصغير ، وجعله يُفلتني . وكان من المؤكد أن يُدَق عنقي لو لم تسارع والدته إلى انقاذي وقـــد لاحظتْ سيدتي حالتي هذه ، فوضعتني في فراشها ثم غطتني بمنديل ابيض نظيف ، ولكنه كان أكبر وأكثر خشونة من شراع الصاري .

نمتُ ساعتين ، وقـــد حلمت انني في بيتي مع زوجتي وأولادي ، فزاد بؤسي عندما استيقظت لأجد نفسي وحيداً في غرفة فسيحة ، يبلغ اتساعها ما بـين مئتين وثلاثمئة قدم ، كما يبلغ ارتفاعها حوالى المئتي قدم .

وفيما كنتُ غارقاً في أفكاري الحزينـة هذه ، سمعت فجأة صوتاً على مقربة من سريري ، ثم شاهدت على الفور جُرذين يتسلّقان الستارة . وما إن وصلا السرير حتى أخذا يجريان فوقه ووصل أحدهما إلى وجهي ، فنهضت سريعاً عندئذٍ وأنا في حالة خوف شديد ، فاخرجت سيفي ووقفت مستعداً للدفاع عن نفسي .

كانت هذه الحيوانات المخيفة جريئة للغاية ، ولم تتورع عن مهاجمتي من كلا الجانبين ، ثم ثبّت أحدهما رجله في

ياقة سترتي . ومن حسن حظي ، أنني تمكنت من شق بطنه بسيفي قبل أن يتمكن من إيذائي . ولما رأى الجرذ الآخر ما حلّ برفيقه ، بادر إلى الفرار ، ولكنه ما نجا من ضربة وجّهتها له اثناء فراره ، أصابته بجرحٍ في ظهره جعلت الدم يسيل منه .

وبعد هذا الحادث ، رحت أسير جيئة وذهاباً فوق الفراش ، وأنا أحاول استعادة أنفاسي ومعنوياتي . لقد كان حجم هذه المخلوقات يماثل حجم الكلب عندنا بالتأكيد ، لكنّها كانت أكثر شراسة وذكاء منه .

دخلت سيدتي الغرفة على الفور ، وما أن رأتني ملطخاً بالدماء، حتى هرعت إليّ وأخذتني بيدها فأشرتُ إلى الجرذ المقتول وأنا أبتسم ، ثم عملت اشارات أخرى تفيد بانني لم يلحقني أذى. وعند ذلك بدا عليها سرور عظيم.

٢

كان لسيدتي إبنة في التاسعة من عمرها ، وكانت بارعةً في شغل الإبرة ، فصنعتْ لي مع والدتها سريراً أنام فيه ، وجعلتاه في دولاب خزانة صغير، ثم وضعت الدولاب فوق رفٍّ مثبت إلى الحائط ، خوفاً من الجرذان . كذلك خاطت لي سبعة قمصان وبعض البياضات الأخرى من أرقّ قماش عندهم ، وكان يماثل الخيش في خشونته . وفي نفس الوقت كانت الفتاة أستاذتي لتعليمي لغة البلاد . فكلّما كنت أشير إلى شيء ما، كانت تقول لي اسمه بلغتها.وهكذا لم يمض سوى أيام معدودة ، حتى أصبحت قادراً على طلب ما أشاء بلغتها .

كانت طيبة القلب إلى حدٍ بعيد ، وكان طولها لا يزيد عن الأربعين قدماً بسبب صغر سنها ، وقد أطلقت عليّ

اسم « جدلدرج » أي « القزم »، الذي تبنته العائلة، ومن بعدها المملكة بأسرها . وسأكون شديد العقوق إذا تغاضيت عن التنويه باهتمامها ومحبتها الشديدين اللذين أبدتهما تجاهي طوال مدة إقامتي في بلادها .

كان الحديث قد انتشر في الجوار ، بأن سيدي قد عثر على حيوان غريب في الحقل : حجمه ضئيل ، وشكله شكل انسان ، وهو يماثله في جميع تصرفاته ، يتحدث بلغة صغيرة خاصة به ، قد تعلم بضع كلمات من لغتهم ، يقف منتصباً على قدمين اثنين ، ينفذ مايؤمر بتنفيذه ، له أجمل أطراف في العالم ، وبشرته تضاهي في جمالها جمال إبنة نبيل عمرها ثلاث سنوات .

وذات يوم حضر صديق حميم لسيدي ، لزيارة العائلة بغية استطلاع مدى صحة هذه القصة . كان هذا الرجل في سن الشيخوخة ونظره ضعيف ، فاخرج نظاراته من جيبه ووضعها على عينيه لكي يتبينني جيداً . ولم أتمالك عن الإغراق في الضحك ، عندما رأيت عينيه قد بدتا ، بعد أن لبس نظارته ، وكأنهما قمر يرسل شعاعه من خلال نافذتين إلى داخل غرفة . كان شكله يشبه الى حد بعيد رجلاً شديد

البخل ، وكان لسوء حظي ، يستحق هذا اللقب ، بسبب نصيحته الملعونة التي أبداها إلى سيدي . لقد اقترح أن يقوم سيدي بعرضي في السوق العام ، في مدينة تبعد اثنين وعشرين ميلاً . وقد تخوفت أن يكون هناك مخطط لإذلالي كانوا يعدونه لي، وعلى الأخص بعدما رأيت سيدي منهمكاً في الحديث مع جاره بصوت خافت، كانا خلاله يشيران إلي .

وفي صباح اليوم التالي ، تأكدت مخاوفي ، عندما حضرت مربيتي الصغيرة وأخبرتني بكل شيء .. قالت إنها قد عرفت القصة من والدتها . واضافت ان والدها ووالدتها كانا قد وعداها بترك « جلدرج » لها ، ولكنها لم تعد تصدقهما لأنهما خدعاها مثلما فعلا في السنة الماضية عندما تظاهرا بإعطائها حملاً صغيراً ، ثم عادا وباعاه إلى القصاب بعد أن أصبح سميناً .

وعملاً بنصيحة صديقه ، فقد حملني سيدي إلى المدينة المجاورة في اليوم المحدد للسوق ، وقد اصطحب ابنته الصغيرة معه .

كان الصندوق الذي وضعني فيه مغلقاً من جميع

جوانبه ، باستثناء بابٍ صغير أتمكّن من الدخول والخروج منه ، مع بعض الثقوب ، التي لا يزيد حجمها عن حجم ثَقب مِخرز لإدخال الهواء إليّ . وقد حرصت الفتاة ، قبل مغادرتنا البيت ، على وضع لحافها الصغير داخل الصندوق ، لكي أنام عليه. ومع ذلك فقد شعرتُ بالإرهاق والغيظ من جرّاء هذه الرحلة ، رغم انها لم تتجاوز نصف ساعة فقط .

كان الجواد يقطع أربعين قدماً في كل خطوة ، وكان يخبّ .. حتى إن الارتجاج الذي كان يُحدثه لي يماثل ما تُحدثه الباخرة اثناء عاصفة بحرية ، ولكنه كان اكثر استمراريّة .

وعندما وصلنا المدينة ، ترجّل سيدي ثم دخل حانةً تباحث قليلاً مع صاحبها حول بعض الترتيبات الضرورية وكلّف أحد المنادين ، أن يعلن في المدينة عن وجود مخلوق عجيب يُعرَض للفرجة في حانة النسر الأخضر ، وانه يشبه الانسان تماماً ، ويتكلم بضع كلمات من لغتهم ، كما يؤدي مئات الحِيَل المسلّية .

وهكذا وضعوني على طاولة في أكبرِ غرفة من غرف الحانة ، ثم وقفتْ مربّيتي الصغيرة فوق كرسيٍّ منخفض

بقربها للاهتمام بي ، وإرشادي إلى ما يتوجب عليّ عمله . ولم يسمح سيّدي لأكثر من ثلاثين شخصاً بالدخول في المرة الواحدة تفادياً للازدحام . وأما أنا فقد أخذت أسير فوق الطاولة ، حسب أوامر الفتاة .

كانت توجّه لي الأسئلة بلُغتها ، في حدود معرفتي لتلك اللغة ، وأنا أجيبها بصوت مرتفع ، ثم أتوجّه نحو الجمهور أقدم لهم تحياتي المتواضعة ، وأرحّب بهم مستخدماً بعض الجُمَل التي كنت قد تعلّمتها . وبعد ذلك أتناول كشتباناً مملوءاً بالشراب وأشرب نخب صحة المتفرجين ، ومن ثم أمتشق سيفي وألوّح به مثلما يفعل ابطال المبارزة في انكلترا ، وأتناول قشّة صغيرة لأستخدمها مثل حربة .

وقد عُرضت في ذلك اليوم امام اثنتي عشرة مجموعة من المتفرجين . ووجد سيدي هذه العملية مربحة له ، فقرر ان يجوب معظم مدن المملكة ليعرضني فيها . وهكذا بعد ان تزوّد بكل ما يحتاجه في رحلته الطويلة هذه ، ورتب جميع أمور بيته ، استأذن زوجته مودّعاً .

وفي يوم ١٧ اغسطس سنة ١٧٠٣ ، بدأنا رحلتنا إلى العاصمة ، وكانت وسط البلاد ، على بعد ثلاثة آلاف ميل

تقريباً من البيت . كانت خطة سيدي أن يعرضني في جميع المدن الواقعة على الطريق ــ وحتى في القرى وبيوت ذوي المكانة التي تقع على مسافة خمسين أو مئـــة ميل على كلا جانبي الطريق الرئيسي ــ بغية الحصول على أكثر ما يمكن من الربح . فكنّـا نقوم بجولات صغيرة لا تزيد عن سبعة أو ثمانية أميال في اليوم . وكانت مربيتي تتذرع بالتعب ، بغية منحي بعض الراحة . وكثيراً ما كانت تخرجني من الصندوق ، لكي أتنشق الهواء وأتفرج على البلاد ، وتظل ممسكةً بالحبل ، الذي كنت مربوطاً به بقوة .

مررنا على ما يزيد عن خمسة أو ستة أنهار ، جميعـها أعرض وأعمق ، بمراحل كثيرة ، من نهر النيل . وبالكاد صادفنـا جدولاً في صِغَـر نهر التايمس عند جسر لندن . ولقد أمضينا عشرة أسابيع في رحلتنا هـذه ، تمّ عرضي خلالها على الجمهور في ثماني عشرة مدينة كبيرة ، إلى جانب الكثير من القرى وبيوت العائلات الخاصة .

وفي ٢٦ اكتوبر ، وصلنا إلى العـــاصمة ، التي كانوا يطلقون عليها اسم «لوربرولجراد» أي «فخر الكون» . فاتخذ سيدي مكاناً له في الشارع الرئيسي للمدينة ، على مقربة من

القصر الملكي . هناك طبَعَ المنشورات حسب العـادة ، وضمّـنها وصفاً صحيحاً عن أجزاء جسمي . ثم استأجر غرفة زوّدها بطاولة يبلغ محيطها ستين قدماً ، ووضع عليها سياجاً يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام ، لكي يحميني من السقوط من فوقها . وكنت أُعرض عشر مرات في اليوم الواحـد أمام الجمهور الذي كان يعبّر دائماً عـــن إعجابه ورضاه ، خصوصاً وأنني كنت قـد أصبحت قادراً على التحدث بلغتهم بشكل جيد .

**

أحدثَ عملي المتواصل تغيراً في صحتي ، فكلما ازداد دخلُ سيدي من وراء هذا العمل ازداد جشعه وخسرتُ أنا لحمي وأصبحت مثل هيكل عظمي . وما أن لاحظ الفلاح ذلك ، حتى قرر أنني لن أعيش طويلاً . لذا رأى أن يستغلني إلى أبعد الحدود قبل أن يفقد مصدر رزقه .

وفيما كان يفكر فيما يجب عليه عمله ، إذ بأحد موظفي القصر الملكي يحضر إليه ويأمره أن يحملني فوراً إلى القصر ، لتسلية الملكة وحاشيتها . وقد فاق سرور الملكة

وحاشيتها من تصرفاتي كل حد ، إذ ركعتُ على ركبتيَّ
والتمست منحي شرفَ تقبيل قدمها الملكية ، ولكنها
قدمت لي إصبعها الصغير . فوضعت طرفه بكل احترام ،
على فمي .

سألتني الملكة عن بلدي ، وعن رحلاتي ، فأجبتها
باكثر ما يمكن من الوضوح ، وبكلمات قليلة حسبما أمكنني
ذلك . فسألتني هل أرضى بالعيش في القصر ، فانحنيت
حتى وصلت بانحناءتي إلى وجه الطاولة ، وأجبت بكل
خضوع بانني عبدٌ لسيدي ، ولو كنت حراً ، لكان لي
الشرف بان أكرس حياتي لخدمتها . وعندئذ سالت الملكة
سيدي إذا كان يرغب في بيعي لها بسعر جيد . ولما كان
متيقناً من أنني لن أعيش أكثر من شهر ، فقد وافق على
الفور .

وبعد أن تمَّتْ عملية البيع والشراء ، رجوتُ الملكة
إدخالَ مربيتي في خدمتها ، لأنها ظلّت تفهمني طول
الوقت وتعتني بي باهتمام وعطف لا مزيد لهما . ووافقتْ
جلالتها على ذلك ، بعد أن نالت موافقة المزارع دون عناء.
أما الفتاة المسكينة فلم يكن بوسعها إخفاء سرورها بذلك .

انسحب المزارع من حضرة الملكة وهو يودعني قائلاً :
ها أنا أتركك بين أيدٍ كريمة ، لكنني لم أردّ عليه بغير
انحناءة جافة . وقد لاحظتْ الملكة تصرفي هذا نحوه ، فما
أن خرج حتى بادرتني بالسؤال عن السبب . فأجبتها بكل
جرأة : لستُ مديناً لهذا السيد باي معروف ، غير عدم
إجهازه على مخلوق مسكين عَثَرَ عليه صدفة في حقله .
وقد تمَّ سداد هذا المعروف أضعافاً مضاعفة ، عن طريق
الأرباح التي جناها من جرّاء عرضي على الناس ، وبالثمن
الذي قبضه الآن .

وحيث أنني بتُّ لا أشعر بالخوف من إساءة معاملتي
في حمى الامبراطورة ، مفخرة الطبيعة ، وبهجة عيون
رعاياها – فقد تمنيت ألاّ يكون هناك أساس لمخاوف سيدي
السابق .

أما الملكة التي أفسحتْ لي المجال ، وتركتني أتحدث
بهذا الشكل المهين عن سيدي السابق ، فقد أدهشها ذكائي
وعظمةُ إدراكي . فحملتني إلى الملك ، وكان يستريح
آنذاك في غرفته الخاصة .

لم يتبين جلالته شكلي في البدء ، مما جعله يسال الملكة

بصوت جاف ،منذ متى أصبحتْ تُغرَم بالحشرات! غير أنها
لم تردّ عليه بل أوقفتني على الطاولة ، وطلبت مني أن
أروي قصتي أمام جلالته. فقلت أقلُ ما يمكن من الكلمات.
وظن الملك أنني قطعة من آلةٍ أتوماتيكية ، اخترعها
أحد الفنانين العباقرة ، ولكنه بعد أن سمع صوتي ووجد
أن ما قلته شيءٌ عادي ومعقول ، لم يتمكن من إخفاء
دهشته الكبيرة .

استدعى جلالته ثلاثة من أعظم علمائه لفحصي. وبعد
أن فعلوا ذلك ، اتفقوا على انه لن يكون بوسعي أن أنتج
حسب قوانين الطبيعة العادية ،لأنني لم أكن ذا هيكل بوسعه
المحافظة على حياته ، إما بخفة الحركة وتسلق الأشجار ،أو
بحفر الحُفَر في الأرض .

وقد تبينوا من أسناني ، التي فحصوها بدقة متناهية ،
أنني حيوان أقتاتُ باللحوم ، غير ان معظم الحيوانات التي
تسير على أربع ، كانت تتفوق عليَّ في ذلك ، بينما كانت
جرذان الحقل ، وبعض الحيوانات الأخرى ، تفوقني
ذكاءً . ولهذا السبب ، فلن يكون بمستطاعهم أن يتصوروا
كيف يمكنني إعالة نفسي ، اللهمَّ إلا إذا جعلت طعامي

الحلزون ، والحشرات الصغيرة الأخرى .

تقدموا بملاحظاتهم هذه لكي يبرهنوا لجلالته انه ليس
هناك فائدة ترجى مني . حتى إن أحدهم استنتج أنني ربما
كنت جنيناً أو طفلاً ناقص النمو . لكن زميليه لم يوافقاه
على ذلك ، بعد أن رأوا تناسق أعضائي وتكاملها ، وتبيّنا
أنني قد عشت بضع سنوات ، حسبما أظهرتْ لحيتي.

وبعد هذا القرار الحاسم الذي توصلوا اليه ، استأذنتُ
ان أقول كلمة أو كلمتين عن هذا الموضوع . وتوجهت
بحديثي إلى الملك ، مؤكداً له انني قد جئت من بلد
يَزْخر بملايين مثلي من كلا الجنسين وحدثته عن الحيوانات،
الأشجار ، البيوت التي كانت جميعها متماثلة في الشكل
والحجم ، وحيث كان بإمكاني هنك أن أدافع عن نفسي ،
وأن أجد المساندة ، مثلما يستطيع رعايا جلالته أن يفعلوا
هنا . وقد اعتبر الملك حديثي هذا رداً على جميع مناقشات
هؤلاء السادة .

وقد أجابوا على حديثي بضحكة سخرية واحتقار
فقط ، وقالوا: يبدو ان الفلاح قد أحسن تدريبك وتثقيفك.
لكن الملك ، الذي تفهّم حالتي أفضل منهم ، أمر علماءه

بالانصراف، ثم استدعى المزارع وواجهه بي وبالفتاة. وبعد ذلك بدا على الملك أنه قد صدّق كل ما كنت ذكرتُه له ، فرغب إلى الملكة أن تامر باتخاذ خطوات محددة من أجل الاهتمام بي .

تمّ تجهيز غرفة مناسبة لمربيتي فى القصر ، وعينوا لها حاضنة تهتم بتثقيفها، ومربيةً لمساعدتها على ارتداء ملابسها مع خادمتين إضافيتين للقيام بالأعمال الحقيرة الأخرى . وقد أمرتْ الملكة نجار القصر الخاص بصنع صندوقٍ لكي أستخدمه كغرفة نوم لي ، حسب الشكل الذي نريده ، أنا ومربيتي . وكان هذا النجار من أمهر الفنانين . فقد تمكن من صنع غرفة خشبية مربعة، ضلعها ستة عشر قدماً وارتفاعها اثنا عشر قدماً . وكانت مزوّدة بنوافذ من الزجاج ،وبمدخلٍ مع خزانتين للملابس، شبيهة بغرف النوم في لندن . أما سقف الغرفة فقد تمّ تصميمه بشكل يسهل به فتحُه واغلاقه بواسطة مفصّلتين، لكي نتمكن من إدخال سريرٍ تم تجهيزه من قِبَل منجّد الملكة الخاص كذلك تعهد أحد رجال القصر أن يصنع لي مقعدين من

مادة تشبه العاج ، وطاولتين ، وخزانة أتمكن من وضع أشيائي الخاصة فيها .

كانت جميع جوانب الغرفة وأرضها وسقفها محشوة باللبّاد ، لكي تتحمل أي صدمة تنشأ عن إهمال الذين يحملونني . كما أمرت الملكة بإحضار حرير رقيق تصنع لي منه بعض الثياب . ولم يكن هذا القماش أقل سماكة من بطانية إنكليزية. وقد ظلّت هذه الملابس تسبّب لي ضيقاً كبيراً ، قبل ان اعتدتُ عليها. ولقد تمتْ خياطة هذه الثياب فجاءت شبيهة بالأزياء الفارسية .

أصبحت الملكة ، مع مرور الزمن ، مُغرمة بي إلى درجة أنها ما كانت تتناول طعامها إذا لم أكن إلى جانبها . وهكذا تمّ وضع طاولتي ومقعدي فوق الطاولة التي كانت جلالتها تتناول طعامها عليها .

كان لديّ طقم كامل من الأطباق الفضية ، لا يزيد حجمها عن حجم ما تعرضه محلاتُ ألعاب الاطفال . وكانت مربيتي تحتفظ بها داخل علبة من الفضة في جيبها، وتعطيني إياها في أوقات الطعام .

أصبح من عادة جلالتها كلما جلسنا إلى المائدة ، أن

تضع في صحني قطعة صغيرة مـــن اللحم ، ثم تأخذ في مراقبتي وأنا أقطعها بنفسي ، ثم آكلها بشكل منمنم . إذ أنها كانت تلتهم في لقمة واحدة ما كان يلتهمه ١٢ فلاحاً انكليزياً في وجبة كاملة ! كانت تطحن جناح القـبّرة ، العظم واللحم معاً بأسنانها ، رغم ان حجمها كان تسعة أضعاف حجم ديك الحبش . وكانت تضع في فمها قطعة من الخبز يزيد حجمها عن حجم رغيفين مجتمعين ، وتشرب محتويات فنجان مصنوع من الذهب يزيد حجمه عن حجم برميل كبير ، في جرعة واحدة .

أما السكاكين التي كانت تستعملها ، فكان طولها يبلغ ضعفَي طول مِنجلين بمقابضها ، بينما كانت الملاعـــق والشوكات والأدوات الأخرى ، متناسقة الأحجام. وأذكر أن مربيتي حملتني ذات مرة ، للتفرج على بعض موائد القصر بدافع الفضول ، وهناك وجدنا الكثير من السكاكين الهائلة والشوكات، حتى ظننت ان نظري لم يقع من قبل على مثل هذا المنظر المخيف.

كانت العادة في هذه البلاد ، أن يدعو الملكُ والملكة حاشيتهما لمشاركتهما الطعام في غرفة الملك الخاصة ، وذلك

كل يوم أربعاء من الأسبوع، لأن هذا اليوم عطلة اسبوعية عندهم . وقد أصبحتُ أحد الضيوف الدائمين في هذه المادبة الملكية ، فكانت توضع طاولتي ومقعدي فوق المائدة إلى جانب جلالته . وكان يسرّه أن يتحدث معي ، ويستفسر عن العادات في بلادنا ، الديانات ، القوانين ، الحكم ، وعن أوروبا بشكل عام .

ظلت تقاليدُ صاحب الجلالة حتى الآن غالبة عليه ، فلم يكن يتورع عن أن يحملني بيده اليمني ضاحكاً ، ويربت على ظهري بيده الأخرى . ثم يسألني عما إذا كنت موالياً أو معارضاً ، ثم يستدير نحو وزيره الأول، الذي كان يقف خلفه لخدمته ، وهو يحمل عصاً بيضاء في طول الصاري ـ ويعلق بقوله : حقاً إن هذا الشيء الذي يسمّـونه عظمة الانسان لهو جدير بالازدراء . ثم يضيف : أنا اقـــدر على منازلة هذه المخلوقات التي تمتلك الألقاب وأوسمة الشرف ، والذين يبنون جحورهم ثم يطلقون عليها اسم منازل ومدن .

كنت أنصت اليه وهو يواصل حديثه عن بلادي بهذا الشكل من الاحتقار . ومع كل ذلك ، فلم يُغضبني شيء أكثر من قزم الملكة ، والذي لم يكن طوله يزيد عن ثلاثين

قدماً فقط . فقد أخذ يتصرف بصلافة ووقاحة بالغتين ، عندما رأى مخلوقاً أقصر منه كثيراً . . حتى أنه كان دائماً يتظاهر بالخيلاء . ونادراً ما كان يمر من أمامي دون أن يُسمعني بعض كلمات السخرية .

وذات يوم ، وفي موعد الغداء ، كان هذا الجرموز الصغير يتلظى من الغضب بسبب شيء كنت قد قلتُه له. وفيما كنت أجلس مطمئناً فوق الطاولة ، إذ به يتسلق ظهر مقعد الملكة ، فيمسكني من وسطي ، ويقذف بي في داخل جاط كبير ممتلىء بالكريمة . ثم أسرع في الهرب بأقصى ما يمكنه. وقد سقطتُ على رأسي.. ولولم أكن سباحاً ماهراً لكنت واجهت مشكلة صعبة ، إذ كانت المربية في هذه اللحظة عند الطرف الآخر من الغرفة .

هرعتْ مربيتي الصغيرة لنجدتي على الفور وأخرجتني ثم أخذتني إلى الفراش . أما القزم فقد ألقي القبض عليه ونال جزاءه بالجلد ، كما أجبر على شرب ما تبقى من الدّهن كعقوبة اضافية له . وبعد وقت قصير وهبته الملكة إلى سيدة من سيدات المجتمع ،ولم أره بعد ذلك أبداً، مما جعلني أشعر بارتياح عظيم .

وذات صباح ، كانت المربّية قد وضعتْني داخل الصندوق ، ثم وضعته على النافذة ، حسب عادتها عندما يكون الطقس جميلاً . ولم أكن أجرؤ على تعليق الصندوق بمسمار خارج النافذة ، مثلما نفعل بأقفاص العصافير في انكلترا . فرفعتُ غطاء النافذة ، وجلست لتناول طعام الفطور وقد أغرتْ رائحة الكعك الذكية بعض الزنابير على الدخول إلى الغرفة ، فأخذتْ تدور فيها ، بينما كان أزيزها يفوق صوت عدد كبير من قِرب الاسكتلنديين . لقد تمكن بعضها من اختطاف قطعة كبيرة من الكعك ، بينما ظلّ الباقي يحوم حول رأسي .

عندذاك استجمعت شجاعتي فامسكت بسيفي ،وتمكنت من القضاء على أربعة زنابير . وكانت هذه الحشرات بحجم طير الحَجَل .

٢

سأقدّم للقارىء الكريم الآن وصفاً قصيراً عن أبعد ما وصلت إليه في رحلاتي ، وهو حول العاصمة .

المملكة شبه جزيرة ، تنتهي عنـــد ناحيتها الشمالية الشرقيـة بسلسلة جبليّـة يبلغ ارتفاعها ثلاثين ميلاً ، ويستحيل اجتيازها ، لوجود البراكين على قممها ، حتى إن علماء المملكة لا يعرفون شكل الناس الذين يعيشون مـا وراء هذه الجبال .

أما جوانبها الثلاثةُ الأخرى ، فقد كان يحدُّها بحر هائج بصورة دائمة ، حتى إنه لم يكن هناك ميناءٌ واحد في المملكة بأسرها . وتصب الأنهار عند أجزاء من الشاطىء، تمتلىء بالصخور الحادة الأطراف . وبسبب ذلك فقد ظل

هؤلاء الناس بعيدين عن أي تعامل خارجي مع المناطق الأخرى من العالم .

على كل حال ، فإنهم أحياناً يمسكون بأحد الحيتان التي يصدف أن تقذفها الأمواج ، فكان الناس يأكلونه بشهية . وقد رأيت ذات مرة أحدها موضوعاً في صحن على مائدة الملك ، وكان ذلك نادر الوقوع . ولكنني رأيت أنه لم يكن مغرماً بـــه ، بسبب حجمه الكبير الذي جعل الملك يشمئز منه .

كانت البلاد تشتمل على إحدى وخمسين مدينة،وقرابة مئة بلدة مسوّرة ، بالإضافة إلى العديد من القرى الصغيرة الأخرى . ولكي أشبع فضول القارىء ، سوف أتحدث فقط عن العاصمة « لوربروجرود » .

كانت العاصمة مشيّدة فوق جزئين متساويين مـــن الأرض ، يقعان على ضفتي نهر كبير ، وهي تضم أكثر من ثمانين ألف منزل ، فيها ستمئة ألف علاق . أمـــا طولها فكان يبلغ ثلاثة « جلوم جلونجز » ، أي ما يعادل أربعة وخمسين ميلاً انكليزياً ، فيما يبلغ عرضها اثنين ونصفاً . وقد تأكدتُ من ذلك بواسطة الخريطة الملكية ، التي تمّ

إحضارها لي بأمر من الملك ، والتي كان طولها يتجاوز مئة قدم .

لم يكن قصر الملك مبنىً عادياً ، بل مجموعة مباني تقوم فوق مساحة سبعة أميال مربعة. أما غرفه الرئيسية فكانت على العموم على علو مئتين وأربعين قدماً ، واسعة وطويلة بشكل منسجم . وقد خُصص لمربيتي ولي إحدى العربات، لأن مربّيتها كثيراً ما كانت تصطحبها في جولة بالمدينة ، أو تأخذها إلى السوق ، لتتفرّج على مخازنه ، وكنت دائماً رفيقها وأنا محمول داخل صندوقي . وكثيراً ما كانت الفتاة تخرجني من الصندوق ، وتمسك بي في يدها لأتمكن من التفرّج على البيوت والناس ونحن نسير في الشوارع ، عندما كنت أبدي رغبتي لذلك .

وقد أمرت الملكة بصنع صندوق آخر لي أصغر حجماً من الصندوق الأول كي يكون أكثر ملاءمة للرحلات ، بحيث لا يتعذر على مربيتي وضعه في حجرها .

كانت هذه الحجرة الصغيرة مربعة الشكل تماماً ، يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام، ولها نافذة في كل من جوانبها الثلاثة. وأما الجانب الرابع ، والذي لم يكن به نافذة ، فقد



جلفر ومربيته وصندوقه

ثبّتوا فيه زرّين لكي يتمكّنَ الشخص الذي يحملني من ربط حزام جلدي بهما وتبكيله على وسطه، إذا ما عن على بالي ذات مرة ركوب الخيل.

كان لديّ في هـذه الحجرة الصغيرة، سرير نقال، وناموسية تنسدل من السقف، مقعدان وطاولة، كانت مثبتة في الأرض بدقة، لمنعها من التدحرج داخل الغرفة بسبب حركة الجواد أو العربة. ولما كنت قد تعودت منذ أمدٍ بعيد على الرحلات البحريـة، فان هذه الحركات لم تعد تقلقني، رغم شدتها في بعض الأحيان.

لقد رغبتُ كثيراً في رؤية المعبد الرئيسي في المدينة، وعلى الأخص ذلك البرج الذي يقال بأنه أعلى بنـــاء في المملكة وهكذا حملتني مربيتي ذات يوم إلى هناك. والحق أنني عدت من زيارتي هذه خائب الأمل، إذ أنـ ارتفاع البرج لم يتجاوز ثلاثـة آلاف قدم، ولو أخذت بالحساب الفارقَ بين حجم هؤلاء الناس وبين حجمنا نحن في أوروبا فانـــه لم يكن شيئاً عظيماً يستحق الإعجاب. ولكي لا أنتقص من شعبٍ عاهدت نفسي أن أظل أعترف بفضله طوال حياتي، فلا بد لي من الاعتراف بجمال البرج وقوته

حيث كانت سماكة جدرانه تبلغ مئة قدم، مبنية من أحجار منحوتة ومزخرفة في جميع جوانبها بتماثيل الآلهة والملوك.

كانت بناية المطبخ الملكي روعةً في البناء بقُبّتها العالية التي يبلغ ارتفاعها ستمئة قدم. أما الفرن الضخم فكان اتساعه يقل قليلاً عن قبة كنيسة الفاتيكان. أما إذا أردت وصف مواقـد المطبخ، القدور، الغلايات، قطع اللحم الكبيرة التي كانت تطبخ فوق المواقد، والمفردات الكثيرة الأخرى، فيُحتمل أن لا يصدّقني أحد، أو على الأقل ينعتونني بالمبالغة.

نادراً ما كان جلالته يحتفظ بأكثر من ستمئة جواد في إسطبلاته، وكان ارتفاع الجواد يتراوح بين خمسين وستين قدماً. ولكنه عند ما كان يذهب إلى الخارج في المناسبات الدينيـة، كان يصحبه حرس مـــن الميليشيا قوامه خمسمئة فارس، ما أفخم منظرهم جميعاً !!

لم يكن هناك ما يمنعني من العيش سعيداً في تلك البلاد لو لم يعرّضني قِصري لحوادث مخيفة ومزعجة، سوف أروي بعضها الآن.

كثيراً ما كانت المربّية تحملني إلى حدائق القصر في

صندوقي الصغير، أو تخرجني منه بعض الأوقات وتحملني
في يدها، أو تدعني أسير على قدمي. وأنا أذكر أن القزم
كان قد تبعنا ذات يوم إلى هذه الحدائق. وبعد أن تركتني
مربيتي مرةً على مقربة من أشجار التفاح الصغيرة نسبياً،
كان عليّ أن أبدي ذكائي أمامه باشارة سخيفة، مقارناً بينه
وبين تلك الأشجار. وقد ظل هذا القزم يرقب فرصته
للانتقام مني إلى أن أسعفته الفرصة، عندما وجدني أسير
أسفل إحدى هذه الأشجار، فامسك بالشجرة وهزّها فوق
رأسي مباشرة. فأخذ التفاح يتساقط منها بالعشرات، وكان
حجم الحبّة يوازي حجم برميل. وقد أصابتني إحداها في
ظهري عندما صدف وكنت منحنياً، وأوقعتني على
وجهي، ولحسن حظي لم أُصب باي أذى آخر.

لا يمكنني القول ما إذا كنت أكثر سروراً أو أكثر
خزياً عندما رأيت أن الطيور الصغيرة الحجم لا تخاف
مني أبداً، بل تنطّ على مقربة مني تبحث عن الديدان
بلا مبالاة وطمأنينة كما لو أنه لم يكن هناك أي مخلوق.
وأنا أذكر ان أحد طيور السُمّن قد اختطف من يدي
قطعة من الحلوى كانت المربية أعطتني إياها.

وذات يوم أخذتُ هراوة غليظة وقذفتها بكل قوتي
على شحتوت. فوقع على الأرض. فاسرعت إلى الإمساك به
من عنقه بكلتا يديّ وعدتُ مسرعاً إلى مربيتي وأنا أشعر
بالزهو. ولكن الطائر الذي كان مذهولاً من الضربة فقط
استعاد وعيه وأخذ يضربني بجناحيه على رأسي وجسمي
رغم أنني كنت ممسكاً به بعيداً عن وجهي وكنتُ بعيداً
عن مخالبه، حتى انني فكرت في إفلاته. وقد هبّ أحد
الخدم لنجدتي، فلوى رقبته وقتله، ثم قدموه لي في
اليوم التالي كغداء بناءً على أمر الملكة.

سألتني الملكة ذات يوم – حيث أنها كثيراً ما كانت
تستمع إليّ وأنا أتحدث عن الرحلات البحرية – إذا كنت
أعرف كيف أوجّه الشراع أو أستخدم المجذاف، وهل ان
بعض التمرين على التجذيف يمكن أن يكون ملائماً لصحتي،
فاجبتها أننى على معرفة جيدة بكليهما. فقالت: لو تمكنتَ
من اختراع قارب، فان نجارها سيقوم بصنعه، وسوف
تمنحني مكاناً فيه لكي أبحر به.

كان هذا الشخص عبقرياً حقاً، إذ تمكن من الانتهاء
من صنع القارب خلال عشرة أيام. وقد سُرّت به الملكة

أشدّ السرور حتى انها حملته في حضنها وذهبت به إلى الملك فامر الملك بوضعه في حوض ممتلىء بالماء وأنا معه ، على سبيل التجربة . ولكنى بالطبع لم أتمكن من استخدام مجاذيفي الخلفية أو المجاذيف الصغيرة بسبب ضيق المكان .

لكن الملكة كانت قد اخترعت مشروعاً آخر فامرت النجار أن يصنع لي حوضاً خشبياً طوله ٣٠٠ قدم وعرضه ٨ أقدام . وقد صنعه النجار ووضعه إلى جانب الجدار في غرفة خارجية من القصر . وهناك كثيراً ما كنت أجذّف لتسلية الملكة وحاشيتها . كما كنت أحياناً أرفع الأشرعة ، وأدير الدفـة ، فيما كانت السيدات يزوّدنني بالريح من مراوحهن اليدوية .

وذات يوم وقع لي حادث كان من الممكن أن يكلّفني حياتي، إذ كان أحد الغلمان قد وضع قاربي في داخل الحوض فحملتنى المربية لتضعني في القارب ، ولكننى أفلتّ من بين أصابعها ، وكان من المؤكد أن أسقط على الأرض لو لم يوقفني دبوس من الفلين كان مثبتاً في ثياب الفتاة الطيبة . فقد مرّ هذا الدبوس بين قميصي وحزام سروالي المربوط

على وسطي، وهكذا ظللت معلقاً في الهواء إلى أن أسرعت مربيتي وخلّصتني .

ومرة أخرى ، ترك الخادم الذي كان مكلفاً بان يملأ الحوض بالماء كل ٣ أيام ضفدعة ضخمة تنزلق من سطله ، فظلّت مختبئة إلى أن تمّ إنزالي في القارب، وعندها تسلقتْ من مكمنها ، وجعلت القارب يميل على جانبه.. مما اضطرني أن أعيد توازنه بوضع كل ما لدي من ثقل على الجانب الآخر لمنعه من الانقلاب .

وكان أعظم خطر تعرضت له في تلك المملكة من قرد كان يخص أحد موظفي المطبخ . كانت المربية قد أغلقت عليّ الحجرة الصغيرة لتذهب إلى مكان ما للزيارة وحيث ان الطقس كان شديد الحرارة ، فقد تركت إحدى نوافذ الحجرة مفتوحة، بالاضافة إلى نوافذ وباب صندوقي الأكبر الذي كنت أعيش فيه عادة بسبب اتساعه وملاءمته .

وفيما كنت أجلس على طاولتي مطمئناً ، سمعت شيئاً ما يثبُ من نافذة الحجرة ، ثم يأخذ في الوثوب من ناحية إلى أخرى. وتجرأت على التطلع إلى الخارج، فرأيت قرداً، ذلك

الحيوان المرح ، يرقص ويقفز إلى فوق وإلى أسفل ، حتى
وصل إلى صندوقي ، الذي بدا انه كان ينظر إليه بسرور
واستغراب عظيمين .

وبعد أن أمضى بعض الوقت في تلصّصه هذا ، وقع
نظره أخيراً عليّ ، فمد أحد مخالبه إلى الباب ، مثلما تفعل
القطة عندما تلاعب الفار . ورغم أنني غيّرت مكاني لتفاديه
فانه تمكن من الإمساك بياقة سترتي وجرني إلى الخارج .
ولا بد أنه اعتبرني سِعداناً صغيراً من فصيلته ، إذ كان
يربت على وجهي برفق شديد. وفيما هو يزاول تسلياته هذه
قوطع بصوتٍ صدر عن باب الحجرة ، كما لو كان هناك
أحد يحاول فتحه . فقفز فجأة إلى النافذة، ثم إلى السطوح
والأحواض ، وهو يسير على ثلاثة أرجل ، فيما كان يمسك
بي في رجله الرابعة ، إلى أن تسلق السطح الذي كان يلي
سطحنا .

وعند ذاك سمعتُ المربية تطلق صرخةً مرعبة . أما
ذلك الجزء من القصر فقد أصبح في حالة هياج شديد ،
وأسرع الخدم لإحضار السلالم. وكان المئات من الأشخاص

الموجودين في القصر ، قد رأوا السعدان يجلس على إفريز
البناية ، وهو يحملني مثل طفل بيديه ، ويقدم لي الطعام
بحشو فمي ببعض الأطعمة التي يخرجها من فمه ، ويربت
عليّ إذا رفضتُ الأكل . ولم يكن بوسع الناس الذين كانوا
يتواجدون في الشارع الامتناع عن إطلاق ضحكاتهم
العالية ، إذ أن المنظر كان مثيراً للضحك لدى الجميع ما
عداي أنا .

لقد أحضروا السلالم، وبدأ عدد من الرجال يتسلقونها.
ولاحظ السعدان ذلك ، ووجد نفسه محاصَراً. ولما لم يكن
قادراً على السير بسرعة على أرجله الثلاث ، فقد أفلتني
وتركني أسقط على إفريز من القرميد وهرب .

جلست في مكاني ، الذي كان يرتفع ٥٠٠ ياردة عن
الأرض ، لبعض الوقت ، أنتظر في كل لحظة أن تطيح بي
الرياح ، أو ان أسقط من نفسي بسبب الدوار ، وأهوي
إلى الأرض . لكن واحداً من الشباب المخلصين تسلق إلى
مكاني فوضعني في جيب سرواله وأنزلني بسلام .

وعندما حظيت بمقابلة الملك لكي أقدم له شكري ،

سرّه أن يمازحني كثيراً من أجل هذا الحادث . وقد رغب معرفة كيف كان يمكنني أن أتصرف في مثل هذه المناسبة لو كنت في بلدي . فأخبرت جلالته انه لا يوجد سعادين في أوروبا ، باستثناء تلك التي يحضرونها من أجل الفُرجة ، من البلاد الأخرى ، وهي صغيرة بحيث يمكنني أن أواجه اثني عشر سعداناً منها لو حاولت مهاجمتي .



جلفر والضفدع

٤

كنت أحضر استقبالات الملك الصباحيـة ، مرة في الأسبوع ، وكثيراً ما رأيته يحلق ذقنه . وكان هذا المنظر مخيفاً جداً ، إذ أن موسى الحلاقة كانت تبلغ ضعفي حجم سيف عادي . وذات مرة أقنعتُ الحلاق أن يعطيني بعض المعجون الذي يستعمله ، وانتقيت من بينه ، ما يقرب من خمسين ، من أقوى جدعات الشعر . ثم أخذت قطعة من الخشب وقصَصْتها على شكل برواز المشط ، وجعلت بها عدداً مـــن الثقوب على مسافات متساوية ، بواسطة إبرة صغيرة حصلت عليها من المربية .

ثبتُّ الجدعات بشكل فني ، ثم كشطتها وأمَلْتُها عند أطرافها بمديتي ، وجعلت منها مشطاً مقبولاً ، بشكل جيد . وقد حظيتُ بهذا المشط ، في وقت كنت في أمسّ

الحاجة اليه ، حيث ان مشطي القديم لم يعد صالحاً للاستعمال ولم يكن هناك في البلد أي امرىء قـــادر على صنع مشط جديد آخر لي .

وهـذا الحادث يذكّـرني بتسلية كنت أمضي معظم ساعاتي في مزاولتها . فقد طلبت من خادمة ان تحتفظ لي بما يَنسِل من شعر الملكة اثناء تمشيطها. وبعد أن تباحثت مع صديقي النجار ، الذي كان قـد تلقى أوامر من الملك بأن يلبي لي بعض الطلبات الصغيرة ، طلبت منه أن يصنع لي هيكل مقعدين ، لا يزيد حجمهما عن حجم تلك التي في غرفتي ، ثم يثقب ثقوباً صغيرة في أجزاء حددّتها له . ثم حبكتُ أقوى الشعيرات التي تمكنت من الحصول عليها عبر هذه الثقوب ، بنفس الشكل الذي يفعله صانعو الكراسي في لندن .

وانتهيتُ من هذا العمل، فقدّمت المقعدين كهدية إلى الملكة ، التي احتفظت بهما في غرفتها ، وأخذت تعرضهما على زوّارها ، وكانا موضع إعجاب كل من رآهما .

كان الملك يقيم حفلات موسيقية في قصره بـين الحين والآخر ، وكنت أحضر بعضها أحيـــاناً ، لكن صوت

الموسيقى كان عظيم الارتفاع ، بحيث تعذّر عليّ تبيُّنُ الألحان . كنت قد تعلمت في شبابي أن أعزف قليلاً على أرغن صغير ، وكان هناك واحد لدى مربيتي كانت تحتفظ به في غرفتها ، حيث يعلّمها ذلك أحد أساتذة الموسيقى مرتين في الأسبوع . وقد عنّ على بالي أن أسلّي الملك والملكة بعزف قطعة من الموسيقى الانكليزية لهما ، على هذا الأرغن . ولكن هذا بدا لي صعباً للغاية ، لأن ارتفاع الأرغن كان ستين قدماً ، فيما كان اتساع كل مفتاح فيه يبلغ القدم ، بحيث لو مددت ذراعيّ إلى مداهما ، فلن أتمكن من الوصول إلى أكثر من خمسة مفاتيح .

وإليك الأسلوب الذي اعتمدته للتغلب على هذه الصعوبة: جهزت عصوين في طول الهراوة العادي ، وكان أحدُ أطرافهما أسمكَ من الآخر ، وقد غطيته بقطعة من جلد الفأر ، حتى لا أتلف مفاتيح الأرغن عندما أدوس عليها بتلك العصي .

وقد تم وضع أحدِ المقاعد على بعد أربعة أقدام أسفل المفاتيح ، ووضعوني أنا على المقعد ، فأخذت أميل إلى هذا

الجانب أو ذاك ، أضرب على المفاتيح الصحيحة بالعصا ، ثم عزفت رقصة سريعة نالت إعجاب الملك والملكة .

كان الملك ، كما ذكرت في السابق ، ذكياً للغاية ، وكثيراً ما كان يامر بحملي في صندوقي إليه ووضعي فوق الطاولة في غرفته . وذات يوم أعطيت لنفسي الحق أن أقول لجلالته ، ان الاحتقار الذي يحمله تجاه أوروبا وبقية العالم يبدو لا جواب له أمام خاصيات العقل الممتازة التي يملكها ، وان العقل لا يقيَّم بضخامة الجسم ، فنحن رأينا في بلادنا ان أطول الأشخاص هم في العادة أقل الناس ذكاءً . وقلت له ، مهما كانت تفاهتي في نظره ، فإنني أرجو أن يمد الله في حياتي ، لكي أتمكن من إسداء خدمة بارزة لجلالته .

استمع الملك إلى حديثي بانتباه ، وبدأ ينظر إليّ نظرة أفضل من السابق . وطلب مني أن أقدّم وصفاً شاملاً عن الحكومة في انكلترا ، لأنه سيكون مسروراً بان يستمع إلى أي شيء يستحق أن يقلَّد في مملكته .

بدأت حديثي بإخبار جلالته أن أراضينا تشتمل على جزيرتين ، ثم تحدثت بشكل موسّع عن المؤسسات المختلفة

في بريطانيا ، وعن البرلمان الذي يتشكل من مجموعة كبيرة من الأشخاص، يطلق عليه إسم مجلس اللوردات ، ومجموعة أخرى ينتخبها المواطنون اسمها مجلس العموم. وينضمّ إلى هؤلاء أيضاً بعض رجـال الدين ، وعملُهم المحدد هو الاهتمام بالثقافـة الدينية ، وتلقين الناس أصول ديانتهم وقواعدها .

وبعدئذ انتقلتُ إلى الحديث عن محاكم العدل ، التي يقرر حكامها حقوق والتزامات الناس الذين يقع بينهم الخلاف ، لسبب أو لآخر ، ولمعاقبة المجرمين وحمايـة الأبرياء . وتحدثت أيضاً عن الادارة الحكيمة لخزينة الدولة كما أحصيت له عدد السكان ، بتقدير عدد أتباع كل ديانـة بمفردها ، أو عدد أفراد كل حزب سياسي على حدة .

وعندما انتهيت من هـذه المقابلات الطويلة ، تساءل جلالته عن الطرق التي كنّا نستخدمها في تثقيف عقول وأجسام أبناء نبلائنا الشباب ، وفي أي نوع مـن الأعمال كانوا يعملون في الجزء الأول من حياتهم ، وما هو الاتجاه الذي يتم لملء مجلس اللوردات عنـدما تنقرض عائلة

من عائلات النبلاء هذه ، وهل كان ذلك يجري عن طريق : مزاج الأمير ، أو مبلغ من المال يتم تقديمه إلى احدى سيدات العصر ؟

ثم طلب الملك معرفـة الطريقة التي يتم فيها انتخاب ممثلي الشعب ، وهل بإمكان أحد الغرباء الأغنياء أن يؤثر في الناخبين لكي ينتخبوه بدلاً عن انتخاب أفضل شخص في الجوار ؟ وكيف حدث ان الناس يصرّون بقوة على الدخول إلى هـذا المجلس ، الذي علمتُ ان دخوله يكلف مشقة ومالاً كثيرين ، إلى حد القضاء على عائلاتهم ، دون أن يحصلوا على راتب أو تعويض !

أما فيما يتعلق بحديثي عن المحاكم ، فقد طلب جلالته أن أردّ على بعض ملاحظاتـه . وكان بإمكاني فعلُ ذلك بشكل أفضل ، لأنني سبق ووصلتُ إلى انهيار كامل نتيجة قضيةٍ طال النظر فيها لدى المحكمة العليـا ، ثمّ تم الحكم فيها لمصلحتي من ناحية المصاريف. وقد سأل ما هو الوقت العادي المطلوب للتقرير بين الحق والباطل ؟ وما هي درجة المصاريف لمثل هـذه الدعاوي ؟ وهل يحق للمحامين والمدّعين العامين أن يترافعـوا في القضايا التي تكون

معروفة بأنها غير عادلة؟ وهل يَعتبر الناس الإكليروس أو السياسيين لهم وزن ميزان العدالة .

تحوَّل بعدئذ إلى مسالة ادارة الخزينـــة ، وقال ان ذاكرتي قـد خانتني ، لأنني قـد حسبت مجموع الضرائب التي تتمُّ جبايتها ، حوالى خمسة أو ستة ملايين جنيه في السنة ، وعندما وصلت إلى ذكر المصروفات ، جعلتهـا تزيد عن ضعف هـذا المبلغ . وسالني من هم دائنونا ، ومن أين نجد المال لكي ندفع لهم ؟ وقد استغرب الملكُ حديثي عن الحروب الباهظة التكاليف ، وقال اننا بالتاكيد شعب مشاغب ، أو اننـا نعيش على مقربة من جيران أشرار ، وان جنرالاتنا يجب أن يكونوا اثرياء اكثر من ملوكنا .

ثم سال عن نوع المنتجات التي نصنعها في بلادنا ، غير تلك التي كانت للتجارة أو توقيع المعاهدات ، أو من أجل الدفاع عن شواطئنا بواسطة الأسطول. وقد استغرب جلالته كثيراً عندما سمعني أتحدث عن جيش المرتزقة العاطل عن العمل الذي يتواجد في أيام السلم بين الناس الأحرار ، وقال : إذا كنا نُحكم بموافقتنا ، من خلال ممثلينا ، فلا يمكنه أن يتصور ممن نخاف ، أو ضدَّ من علينا أن نحارب !

وهو يطلب رأيي ، في ما إذا كان على صاحب البيت أن يدافع عن بيته ، وأطفاله ، او ان يترك هذه المهمة لنصف دستة من المرتزقة الأوغاد الذين تم التقاطُهم من الشوارع ، مقابل رواتب بخسة .

ولقد انذهل تماماً بالوصف التاريخي الذي قدمته عن شؤوننا خلال القرن الأخير ، كما اعترض على ذلك بقوله : انها لم تكن غير كومة من المؤامرات ، التمردات ، الجرائم ، المذابح ، الثورات ، الإبعاد ، وهي اسوأ النتائج التي تتولد عن الجشع ، الرياء ، الخيانـة ، الوحشية ، الحسد والمكر والطموح .

وفي مقابلة أخرى ، كان جلالته يحاول ان يعيد كل ما سبق أن أخبرته به باختصار . وبعـد ان قابل اسئلته مع الأجوبة التي رددت بها عليه ، حملني بيده ، وأخـذ يربت عليَّ برفق ، ثم وجّه لي هـذه الكلمات ، التي لن أنساها ابداً ، ولن انسى الأسلوب الذي قالها به :

« يا صديقي الصغير ، لقد مدحت بلادك بشكل يثير الاعجاب الشديد ، وقد اثبتَّ بوضوح ان الجهل والكسل والرذيلة هي المقومات الصحيحة لتاهيل المشترع عندكم ، وأن

افضل من يوضح هـــذه القوانين ويفسرها وينفذها هم
اولئك الذين تكمن مصلحتهم وقدراتهم في إساءة استعمالها
والتملّص منها .. وهم الحكّام عندكم والتجّار .

ثم واصل جلالته الحديث وقـال : وبالنسبة لك ،
يا من أمضيتَ معظم حياتك في الأسفار ، فأنا ارجو ان
تكون قد نجوتَ من الكثير من مقومات بلادك حتى الآن .
ولكن . ما تمكنتُ من جمعه ـ من علاقتك الشخصية ومن
الأجوبة التي انتزعتها منك بعد تعب شديد ـ بوسعي أن
استنتج منه ان جميع مواطنيك هم من اكثر الأمم اذيّة ،
ومن احقر الطفيليات التى انجبتها الطبيعةُ وعانت من
دبيبها فوق هذه الأرض . إنكم ظَلَمة حقيرون .

٥

ذات يوم ، وعلى أمل نيل حظوة أكبر لدى جلالته ،
أخبرته عن اختراعٍ تمّ اكتشافه قبل اربعمئة سنة تقريباً ،
وان هذا الاختراع ينطوي على تحويل كمية معينة من
البارود إلى كومةٍ تستطيع أقل شرارة تقع عليها ، ان
تشعلها كلها في لحظة واحدة ، بالرغم من ان حجمها
كالجبل ، وتجعلها تتطاير في الجو ، مصحوبة بهدير أعظم
من الرعد.وان كمية محدودة من هذا البارود ، إذا ما تم
حشوها داخل ماسورة مجوفة من النحاس أو الحديد ،
بإمكانها أن تقذف قذيفة من الحديد أو الرصاص بعنف
وبسرعة ، حتى لا يستطيع أحد مواجهتها .

أما اكبر القذائف حجماً ، والتي يتم اطلاقها على هذا

الشكل، فإنها لا تقضي على جيش بأكمله على الفور فحسب، بل هي قادرة على تدمير أقوى الأسوار، وإغراق السفن بمن عليها من الرجال. وأخبرته أيضاً أنني مطّلع على نوع المواد الأولية لهذا البارود، وهي رخيصة الثمن وشائعة، كما انني على معرفة بطريقة صنعه، وعلى استعداد لتدريب رجاله على صنع هذه الأنابيب بأحجام متناسقة تناسب كل شيء في مملكته، ولن يكون هناك حاجة لأن يزيد طول أكبرها عن مئة قدم. ذلك لأن عشرين أو ثلاثين من هذه القنابل، إذا ما تمت تعبئتها بكمية مناسبة من البارود والقذائف ـ تستطيع هدم جدران أقوى مدينة في المملكة خلال ساعات قليلة.. وحتى هدم العاصمة بأكملها، لو حاولت التمرد أو عصيان أوامر جلالته.

انتاب الملكَ ذعر عظيم بعد أن سمع هذا الوصف الذي قدمته له عن تلك الآلية من السلاح، ومن الاقتراح الذي عرضتُه عليه. وقد استغرب كيف ان حشرة ضعيفة وذليلة مثلي، يمكنه أن يفكر هذا التفكير الذي ينم عن الوحشية! وبشكل عادي إلى هذا الحد! حتى بدا وكأنه

لا يتأثر مطلقاً من جميع مناظر الدم والخراب، التي سبق ورسمتها له، بفعل هذه الآليات المخيفة المدمرة، والتي لا بد وان يكون أول من اخترعها شخصاً شيطانياً، وعدواً للانسانية.

واصل الملك حديثه قائلاً: أما بالنسبة لي، ورغم أنني أُسَر ببعض الاكتشافات الصغيرة التي لها علاقة بالفن أو الطبيعة، فإنني أفضل ان أفقد نصف مملكتي، على ان أطّلع على مثل هذا السر. ثم أمرني أن لا أعود إلى مثل هذا الحديث مرة أخرى، إذا كنت أقيم وزناً لحياتي.

يا لغرابة النتائج التي يولدها ضيق التفكير وقِصر النظر! فهاهنا أمير لديه جميع المزايا التي تجلب له التبجيل والحب والتقدير، ولديه التبعات الضخمة، والحكمة العظيمة، والمعرفة التي لا حدود لها، علاوة على موهبة الحكم التي تثير الإعجاب وتجعله معبوداً للجماهير.. لكنه يدع مثل هذه الفرصة تفلت من يده، بسبب وسواس تافه لا ضرورة له! وكان من الممكن أن يجعله السيد المطلق على أرواح الناس، وحرياتهم، ومصائرهم.

لم أكن اقصد أبداً من وراء حديثي هذا ان أنتقص من

المزايا العديدة التي كان يتمتع بها هذا الملك العظيم ، والذي لا أشك في انه سوف يجعل شخصيته تتضاءل كثيراً في رأي القارىء الانكليزي بسبب حديثي هذا . ولكنني أؤمن ان هذه العلة قد وُجدت لديهم نتيجة جهلهم ، إذ أنهم لم يتمكنوا حتى الآن من تحويل سياستهم إلى نطاق العلم والمعرفة، كما فعل من هم اكثر ذكاءً منهم في اوروبا !!

ذات يوم ، واثناء مقابلة لي مع جلالته ، صدف وذكرت له عن وجود عدة آلاف من الكتب التي تبحث في فن الحكم والادارة في بلادنا . وكانت نتيجة حديثي هذا على غير ما انتظرت. فقد تولّدت لديه فكرة حقيرة عن ذكائنا، وقال انه يحتقر ويمقت كل انواع الأسرار ،والخداع، سواء أَصدَرَ ذلك عن الأمير نفسه أو عن أحد وزرائه. ولم يفهم ماكنت أرمي اليه من وراء حديثي هذا.

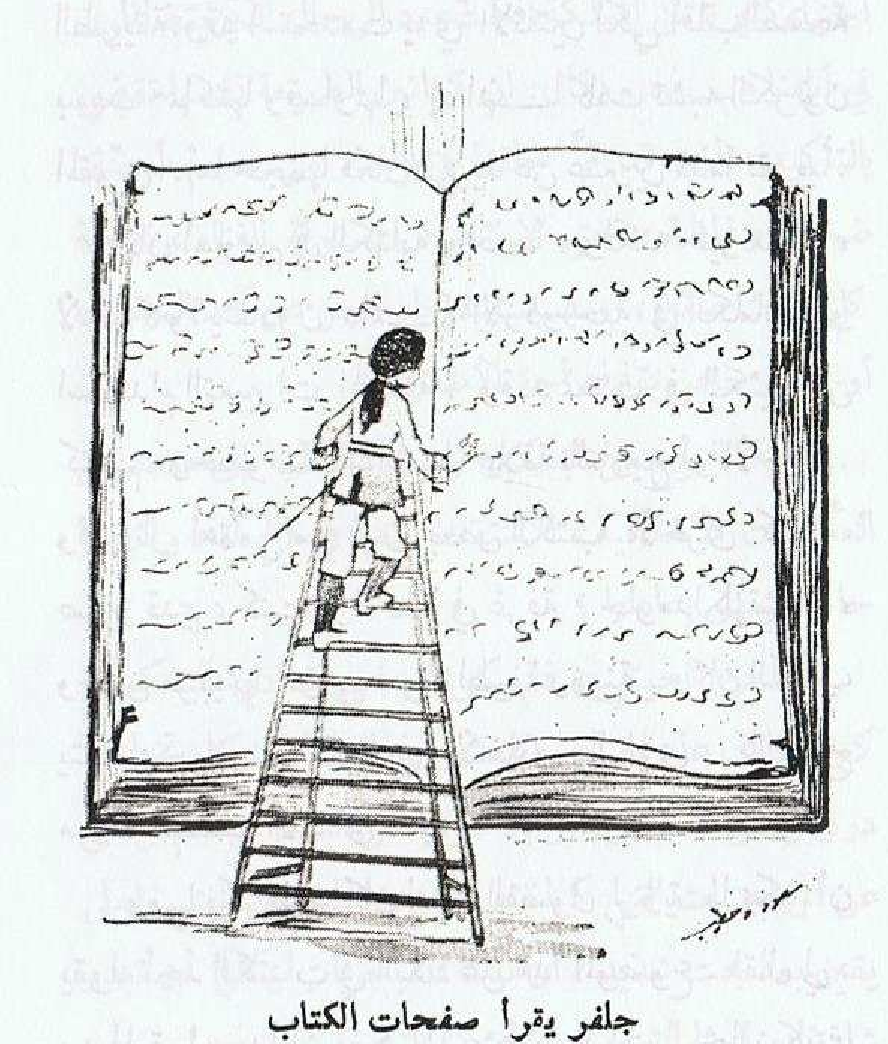
وقد واصل حديثه قائلاً: لم أفهم ما كنتَ تعنيه باسرار الدولة ، عندما لا يكون هناك علاقة ، لا لعدو أو دولة منافسة في الأمر. ألا ترى معي ان كل امرىء يستطيع أن يزرع سنبلتَي ذرة، وورقتي عشب في مكان واحد من الأرض ، حيث لم يكن ينمو هناك إلا احداهما ـ يستحق

احترام اكبر عدد من الناس ، ويخدم بلده أفضل مما يخدمه جميع السياسيين مجتمعين !!

لقد تبينتُ ان ثقافة هؤلاء الناس ناقصة ومحدودة تماماً ، ولم تكن تشتمل إلا على علوم الأخلاق ، التاريخ ، الشعر ،والحساب ، وتسمح لهم بأن يكونوا متفوقين فيها . أما من ناحية علم الحساب ، فقد خصص في المواضيع المفيدة للحياة ، لتطوير الزراعة ، وجميع الفنون الميكانيكية الأخرى . أما بالنسبة للعلوم الأخرى مثل : الخليقة ، الأفكار التجريدية، وواقع ما وراء المعرفة ، فلم أتمكن أبداً من ادخال أقل مفهوم عنها إلى عقولهم .

كان يحظَّر على أي قانون أو قرار ، أن تزيد عدد كلماته عن عدد الحروف الهجائية ، التي كانت تتألف من اثنين وعشرين حرفاً فقط . وكان القليل منهم في الواقع قد توصلوا إلى هذا الحد .. وكان يتم تفسير هذه القوانين بشكل بسيط وواضح ، لأن هؤلاء الناس لم يكونوا اذكياء لكي يكتشفوا أكثر من معنى واحد لها . أما كتابة أي ملاحظة حول هذه القوانين فهو يُعتبر جريمة عظمى.

كانوا قد تعلموا فن الطباعة ، مثل الصينيين ، ولكن



جلفر يقرأ صفحات الكتاب

المكتبات عندهم ليست كبيرة الحجم كثيراً ، مثل مكتبة الملك . كانت هذه اكبرها ، وإن لم تكن تتضمن أكثر من الف مجلّد . وهي موضوعة في رواق يبلغ طوله الفاً ومائتي قدم ، وقد كانت لي حرية مطلقة في أن أستعير ما أشاء من الكتب منها .

وقد حدث أن تمكّن نجار الملكة من اختراع شكل من آلية خشبية في إحدى غرف « جلومدلكليتش » يبلغ طولها خمسة وعشرين قدماً . وكانت هذه الآلية بشكل سلّم منتصب ، عرضُ كل درجة من درجاته يبلغ خمسين قدماً . كان السلّم في الحقيقة متحركاً يمكن نقله من مكان إلى آخر بسهولة ، وكان أدنى طرف به قد تمَّ وضعه على مسافة عشرة اقدام من حائط الغرفة .

كان الكتاب الذي رغبت في قراءته مسنداً على الجدار على ارتفاع عالٍ . فتسلقت في البدء إلى أعلى درجة في السلم . وبعد ان أدرت وجهي نحو الكتاب ، بدأت في قراءته من أعلى الصفحة ، وأنا اسير تارة إلى اليسار وتارة إلى اليمين ، إلى مسافة تتراوح بين ثمان او عشر خطوات ، حسب طول السطور في الصفحة . وظللت على هذه الحال

إلى أن وصلت في قراءتي إلى مستوى أدنى مـــن مستوى نظري. فبدأت أنزل السلم تدريجياً حتى وصلت إلى أسفله. ثم عدت أتسلقه مرة أخرى لقراءة الصفحة التالية بنفس الطريقة. وقد استخدمت يديّ الاثنتين لكي أقلب الصفحة بسبب سماكتها وقساوتها، إذ انهـــا كانت تشبه الكرتون المقوّى.. أما حجمها فكان لا يزيد عن عشرين قدماً تقريباً.

كان أسلوبهم في الكتابة واضحاً، ولكنه غير منمق، لأنهم كانوا يتفادون دائمـــاً الازدواجية في الكلمات أو استخدام التعبيرات المختلفة. وقـد تمعنت في الكثير من كتبهم، وخصوصاً تلك التي لها علاقة بالتاريخ أو الأخلاق. وقد أثار اهتمامي من بـين بعض الكتب الأخرى كتابٌ صغير قديم، كنت أراه دائماً في غرفة « جلومدلكليتش »، ويخص مربيتها، وهي امرأة لطيفة رزينة. وكان الكتاب يتضمن بعض المقالات عن الأخلاق والتقوى، كما يعالج مسألة الضعف الانساني.

ومهما يكن فقد كان لديّ الفضول لرؤية ما يمكن أن يقوله أحد الكتّاب في البلاد عن هذا الموضوع. فقال لي: من المعقول جداً أن يفكر المرء بأن بِنيات الرجال كانت

بالغة الضخامة في العـــادة، بل ان عليه أن يفكر أيضاً بأنه لا بد وأن كان هناك عمالقة في العصور الغابرة، حيث أثبت التاريخ أنه قد تمّ اكتشاف عظام ضخمة وجماجم في أجزاء كثيرة من المملكة، فاقت عدد الرجال الذين يتضاءلون في أيامنا هـــذه. وقال: ان قوانين الطبيعة نفسها تقضي بالتاكيد بانه قد تمّ خلقنا في البدء من حجم أكثر ضخامة وغلاظة، حتى لا نتعرض بسهولة للفناء، نتيجة كل حادث صغير، أو بسبب سقوط حجر عن أحد السقوف أو بفعل حجر يقذفه أحد الأطفال.

وبهذا النوع من التفكير توصل الكاتب إلى عـدد من العلاجات الأخلاقية، للاستفادة منها في الحياة، والتي لا حاجة بي إلى إعادتها.

أما من ناحيتي، فلم يكن بوسعي تفادي التفكير: كيف كانت هذه المواهب منتشرة في العالم: بشكل تخطيط دروس عن الأخلاق، أو بالأحرى، عن التذمر وعدم الرضى عن المشاجرات التي كنا نثيرها مع الطبيعة؟ إنني لعلى يقين بعد بحث شديد، ان تلك المشاجرات يمكن أن تبدو شاذة لدينا مثلما تبدو لدى هؤلاء الناس.

اما بالنسبة للشؤون العسكرية لديهم ، فقــد كانوا يتفاخرون بجيش الملك الذي كان قوامه مئة وستة وسبعين ألفاً من المشاة ، واثنين وثلاثين الفاً من الخيالة . أما هذا الجيش ، لو جاز تسميته كدلك، فقد كان يتالف من تجار مختلف مدن المملكة ومزارعيها . وكان ضباطهم هم فقط النبـلاء والأرستقراطيين ، الذين لا يتقاضون رواتب ، ولكنهم في الحقيقة كانوا في مرتبة الكمال في تدريباتهم ، ويتمتعون بانضباط عظيم ولم يكن هناك أي ميزة أخرى لأفراد هذا الجيش . وكيف يكون ذلك، عندما يكون كل مزارع تحت امرة سيده الذي يعمل لديه ، وكل مواطن تحت امرة الرجال النافذين في مدينته، والذين يتم انتخابهم عن طريق الاقتراع السري !

كثيراً ما كنت أرى قوات الميليشيا التابعــة لمدينة « لوربرولجرود » وهم منتظمون في صفوف طويلة للتدريب في حقل كبير يقع على بعد قليل من المدينة،ويبلغ اتساعه عشرين ميلاً مربعاً . وكان عددهم يربو على خمسة وعشرين الفاً من المشاة ، وستة آلاف من الخيالة . وقــد رأيت أحــد الفرسان وهو يمتطي جواداً يبلغ ارتفاعه

حوالى تسعين قدماً ، كما رأيت هؤلاء الفرسان يمتشقون سيوفهم ويلوّحون بها في الهواء. ليس بوسع أي تخيّل أن يعبّر عن هذا المنظر العظيم المثير للدهشة والاندهال . فقد بدا وكان آلاف ومضات البرق كانت تتلاحق في وقت واحد ،من كل جزء من السماء .

٦

كان قد مضى على وجودي الآن مدة سنتين ، في هذه البلاد. وفي مطلع السنة الثالثة دُعيت أنا و « جومدلكليتش » لمرافقة الملك والملكة، في رحلة إلى الساحل الجنوبي للمملكة.

ولما وصلنا إلى هناك فكّر الملك أنه من الأفضل لو قضى بضعة أيام في قصر كان يملكه في « فِلنفلنسنيك » وهي مدينة على مسافة ثمانية عشر ميلاً عن شاطىء البحر.

كنت أنا و « جلومدلكليتش » متعبين جداً، أنا بسبب إصابتي برشح خفيف ، والفتاة المسكينة بسبب مرضها الذي اضطرها الى ملازمة غرفتها .

كنت أتلهف لرؤية البحر ، الذي يمكن أن يكون طريقي الوحيد للهرب ، فيما لو تمكنت من ذلك . لذا فقد تظاهرتُ بأن حالتي قد ساءت عن ذي قبل ، وطلبت أن

يُسمَح لي باستنشاق هواء البحر المنعش برفقة أحد الغلمان الذي كنت أحبه كثيراً ، والذي سبق واعتنى بي . ولن أنسى أبداً تردُّدَ « جومدلكليتش » في الموافقة على طلبي ، ولا الأوامر المشددة التي زودتْ الغلام بها من أجل الاهتمام بي .. كأنها كانت تتوقع حدوث مصيبة .

سار بي الغلام مسافة ساعة من القصر ، نحو الصخور الكائنة عند الشاطىء . وبعد أن وصلنا إلى هناك ،طلبتُ منه أن يُنزلني ، ثم فتحت إطار احدى النوافذ ، وألقيت نظرةً كئيبة وحزينة إلى البحر ، شعرت إثناءها انني لست في صحة جيدة . فقلت للغلام : انني افكّر في النوم لبعض الوقت على أمل أن يفيدني ذلك ، ثم دخلت حجرتي وقام الغلام بإغلاق النافذة خوفاً من البرد .

رحت في سباتٍ عميق على الفور ، ولست أدري كم من الوقت قد مضى وأنا أغطّ في نومي . وكل ما كان يمكنني ان أحدسه هو انه فيما كنت نائماً ، اعتقد الغلام انه لا خطر عليّ هناك . لذا فإنه تركني وذهب إلى الشاطىء ليبحث عن بيض الطيور بين الصخور . ولكني استيقظت فجأة على جذبة قوية للحلقة التي كانت مثبتة في أعلى الصندوق .

شعرت ان صندوقي يرتفع عالياً جـــداً في الجو ، ثم يتقدم إلى الأمام بسرعة هائلة . وقد سمعت صوتاً فوق رأسي تماماً يشبه رفرفة أجنحة الطير ، ثم بدأتُ أعي الوضع المخيف الذي كنت فيـــه . كان أحد النسور قد أمسك حلقة الصندوق بمخالبه ، وهو مصمم على أن يدعه يسقط على الصخور كانه صَدَفةُ سلحفاة ثم يلتقط جسدي ويأكله .

كان ذكاء هذا الطير وقوة حاسة الشم لديه يمكّنانه من اكتشاف طريدته من مسافة بعيدة ، وبعد فترة قليلة من الوقت لاحظت ان صوت رفرفة جناحيه أخـــذ يتسارع بشكل كبير ، وأصبح صندوقي يتأرجح في الهواء مثلما يخفُقُ العَلَم في يوم عاصف . كما سمعت عـــدة ضربات كانت توَّجـه إلى النسر كما اعتقدتُ .. ثم شعرت فجاة بنفسي وأنا أهوي .. وقد دام ذلك أكثر من دقيقة ، لكن بسرعة مخيفة شعرت معهـــا وكان أنفاسي قد انقطعت .

انتهى سقوطي بطرطشة مرعبة بدا صوتها لأذني أعلى من صوت هدير شلال نياغارا ، ثم هدأ كل شيء حولي

وبتُّ في ظلمة دامسة دقيقةً أخرى ، ثم أخذ صندوقي في الارتفاع عالياً حتى لمحتُ النور خلالَ أطراف النوافذ العليا . وقد علمت الآن بانني قد سقطت في البحر ، وكان الصندوق بكلّ مـــا يحتويه ، وصفائح الحديد الواسعة التي كانت مثبتة على أربع زوايا السقف والأرض ، طافياً فوق الماء باستثناء خمسة اقـــدام منه كانت مغمورة بالماء . فاعتقدت عندئذ ، كما أعتقدُ الآن ، ان النسر الذي اختطفني مع الصندوق وطار بي، كان يلاحقهُ نَسْران أو ثلاثة أخرى ، مما اضطره لتركي أسقط من بـــين مخالبه كي يدافع عـــن نفسه ضد الآخرين .

خرجت بصعوبة من صندوقي ، بعـــد أن تجرّأت على إزاحة لوح السقف ، الذي ذكرته من قبل ، من أجل الحصول على الهواء الذي كنت في أمسّ الحاجة اليه وبقيت على هذه الحال مدة اربع ساعات أنتظر وأرجو ان تكون آخر ساعات حياتي .

وفيما أنا على هذه الحالة المؤسية ، تبادر إلى سمعي صوت احتكاك شيء ما في جانب الصندوق ، حيث كانت الحلقات مثبتة . ثم شعرت على الفور ان الصندوق قد بدأ

يُسحب أو يُجر فوق الماء ، وأنه يُجذب بقوة . مما جعل الأمواج ترتفع عالياً وتغطي حدود نوافذ الغرفة ، جاعلة إياي في ظلمة . وقد زوّدني ذلك ببعض الآمال الواهية في إمكانية انقاذي ، رغم انني كنت أجهل كيف سيتم ذلك.

تسلّقت أحد المقاعد ، وقرّبت فمي من فتحةٍ كانت في جدار الغرفة ، ثم صرخت بأعلى صوتي أطلب المساعدة في جميع اللغات التي كنت أعرفها . ثم ربطت منديلي على طرف عصا كانت موجودة عندي ، وأمررتُها من خلال الفتحة وأخذت ألوّح بها لبضع مرات في الهواء ـ على أمل أنه : لو كان هناك سفينة موجودة على مقربة مني ، أو كانت تمر في تلك المنطقة ـ فقد يكتشف بحارتها وجودي ويسرعون إلى انقاذي .

ولم تمضِ بضع دقائق على ذلك حتى سمعت صوتاً عالياً يتردد صداه ثلاث مرّات على مقربة من مكاني . وقد جعلني هذا الصوت أشعر بسرور لا حدّ له ،ولا يمكن لأحد أن يصفه إلا إذا جرّبَ مثل حالتي هذه .

سمعت بعد قليل رجلاً يسير فوق رأسي على الصندوق ، ثم سمعته يتحدث بصوت مرتفع من خلال

الفتحة ، وكان يتحدث باللغة الانكليزية ، وقال « اذا كان هناك أحد في الداخل فَعَليه أن يتكلم » .

أجبته قائلاً : أنا رجل انكليزي ، أوجدني سوء حظي في أكبر محنة يمكن أن يقع بها انسان على هذه الأرض .. ورجوتُه أن يخرجني من هذا القبر الذي كنت مدفوناً فيه.

وأجاب الصوت قائلاً : لا تخفْ ، لقد أصبحت في أمان الآن .. لأنه كان قد تم ربط صندوقي بالباخرة ، وسيحضر النّجار على الفور ليفتح فيه ثغرة تكفي لإخراجي منه . وبعد قليل حضر النجار وتمكن من فتح ثغرة خلال دقائق قليلة ، ثم أنزل من خلالها سلّم صغير تمكنت من الصعود من الصندوق بواسطته ، ومن هناك تمّ نقلي إلى السفينة وأنا في حالة شديدة من الضعف .

كان جميع البحارة منذهلين ، وأخذوا يوجّهون إليَّ آلاف الأسئلة ، فلم أكن أميل إلى الاجابة عليها . كذلك كنت مندهشاً بدوري من رؤية هذا العدد الكبير من الأقزام ، إذ أنني اعتبرتُ بحارة السفينة كذلك ، بعد أن اصبحتُ منذ زمن طويل متعوّداً على رؤية العمالقة الذين تركتهم خلفي . لكن القبطان المستر توماس ويلكوكس ،

وهو رجل شريف من شروبشاير ، لاحظ مدى إنهاكي ، وانني قد أصبحت على وشك الاغماء ،فأخذني إلى غرفته ثم جعل يشجعني على أن أنام في فراشه ، وهو ينصحني بالاستراحة قليلاً .

بقيت مستغرقاً في النوم لبضع ساعات تخـلّلتها أحلام مرعبة عن المكان الذي كنت قد غادرته . ومهما يكن فإنني وجدت نفسي الآن أحسن من ذي قبل .

كان الوقت الآن حوالي الساعـة الثامنة مساءً ، فأمر الربان أن يأتوني بالعشاء على الفور ، وهو يعتقد بانني نمت ما فيه الكفاية . وبعد أن انتهيت من تناول العشاء ،رغب القبطان في أن يعلم عما إذا كان هناك شيء يقلق أفكاري ، وهل أن ضميري كان يتعذب بسبب جريمة كبرى كنت قد ارتكبتها ، مما أوجب معاقبتي من أحد الأمراء عن طريق وضعي بهذا الصندوق ، مثلما يفعلون بعتاة من المجرمين في البلاد الأخرى .

وقد واصل الربان حديثه دون أن ينتظر ردي قائلاً : مع أنني يجب أن أشعر بالأسف لاستقبالي مثل هذا الرجل المجرم في سفينتي ، فإنني لن أتردد عن استخدام نفوذي من

أجل اطلاق سراحك في أول مرفأ نصل اليه .

عندئذ رجوته أن يتذرع بالصبر ، وان لا يُدينني قبل أن يستمع إلى قصتي . ورويتها له بكل صدق:منذمغادرتي انكلترا في آخر مرة حتى اللحظة التي اكتشفني بهافي البحر. وكما ان الصدق يجد طريقه دائماً إلى العقول النيّرة ، فقد اقتنع هذا الرجل الشريف بكل مـا رويته له .

ولكي أثبت بشكل أكبر صحّة ما رويته له ، فقد رجوته أن يأمر بإحضار خزانتي التي كنت أحمل مفتاحها في جيبي . وبعـد أن تم ذلك فتحتها بحضوره ، وأريته المجموعة الصغيرة من الأشياء النادرة التي كنت قد جمعتها في البلاد التي تم انقاذي منها. كان هناك المشط الذي صنعته من شعيرات لحية الملك ، كما كان هناك مجموعة من الإبر والدبابيس ، يتراوح طول الواحد منها بين القدم ونصف اليارد ، بعض شعيرات من شعر الملكة ، خاتم ذهبي كانت الملكة قد أهدتني إياه بعد أن انتزعته من إصبعها الصغير وأحاطت عنقي به مثل قلادة . وقد رغبتُ إلى الربان أن يقبله كهديـة مني رداً على جميله ، فرفض ذلك بشدة .

وفي النهاية طلبت منه أن يتطلع على سروالي الذي كنت قد صنعته من جلد الفار .

اقتنع الربان تماماً بحديثي الصريح الذي حكيتُه له وقال انه يرجو أن أدوّن كل هذه الأحداث في كتاب تقرأه الجماهير عندما أعود إلى انكلترا . وقد أجبتُه أننا قد أصبحنا متخمين بالكتب التي تتحدث عن الرحلات ، ولا يمكن لأي كتاب لا يتضمن سرد أحداث خارقة أن يأمل بالنجاح، حيث انني كنت أشك في أن بعض الكتّاب يتبنون بقدر الصدق ما يعملون لأجل منافعهم الذاتية أو شهرتهم ، أو تسلية القراء الجهلة . على كل حال فقد شكرته على فكرته ، ووعدت أن أدرسها .

وقال الربان ، فيما كنا نتناول العشاء ، أنه لاحظ بأنني كنت أنظر إلى كل شيء نظرة استغراب ودهشة ، وأنني كثيراً ما أحاول منع نفسي عن الضحك ، فلماذا ؟ فاجبته إن ما تقوله حقيقي ، وأنا أعجب كيف يمكنني أن أمتنع عن ذلك ، وأنا أرى هذه الأطباق التي لم يكن حجمها يزيد عن حجم قطعة الثلاث بنسات الفضية ، وفخذاً من لحم

الخنزير بالكاد يكفي للقمة واحدة ، وفنجاناً لا يوازي حجمه حجم صدفة البحر ! ثم واصلت حديثي في وصف بقية الأواني والمؤن على هذا الشكل .

وقد فهم الربان الحالة التي كنت فيها ، وأجابني ضاحكاً : إنه يشك في أن تكون عيناي أكبر من كرشي لأنه لم يلاحظ معدتي جيداً ، رغم انني كنت صائماً طوال النهار . ثم قال انه على استعداد لأن يدفع مائة جنيه بكل سرور مقابل أن يرى كيف كان النسر يحمل صندوقي ، ثم سقوط هذا الصندوق فيما بعد إلى البحر .

كان الربان قد أتمّ رحلة له إلى تونكين ، وهو الآن في طريق العودة إلى انكلترا ، وقد دفعت الرياح بالسفينة باتجاه الشمال ـ الشرقي لخط العرض ٤٤ درجة وخط الطول ب ١٤٣ درجة .

ولكن عندما واجهتنا الرياح الموسمية ، بعد يومين من وصولي إلى السفينة ، أبحرنا باتجاه الشمال . وقد بقينا على ذلك فترة طويلة . وبعد أن مرت السفينة بالساحل الهولندي حوّلنا اتجاهنا نحو الجنوب ـ الغربي حتى وصلنا رأس الرجاء الصالح . وقد كانت رحلتنا ناجحة تماماً ، غير انني لن أزعج القارىء بذكر تفاصيلها .

وأخيراً وصلنا إلى منطقة التلال في الوطن ، وكان ذلك في اليوم الثالث من حزيران ١٧٠٦ بعد تسعة أشهر تقريباً من إنقاذي .

ولقد عرضت على الربان أن أبقي حاجاتي لديه كتامين، حتى أتمكن من دفع أجرة الرحلة ، ولكنه اعترض قائلاً انه لن ياخذ فلساً واحداً . فودع الواحد منا الآخر بعد أن وعـدني الربان أن ياتي لزيارتي في البيت في ردريف . ثم استأجرت أحد الجياد مقابل خمسة شلنات كنت قـد اقترضتها من الربان قبل مغادرتي له .

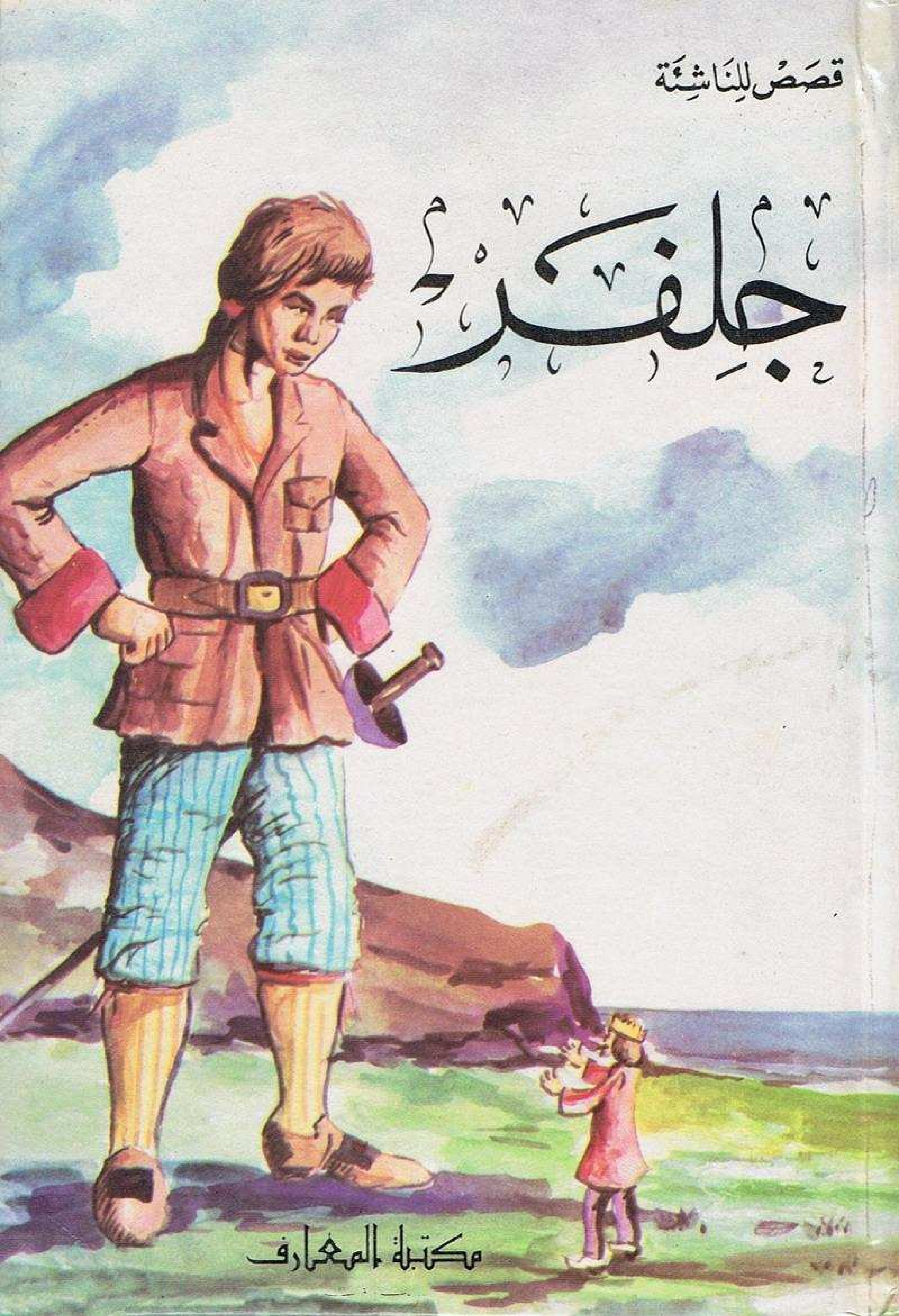
وفيما كنت أسير عـلى الطريق أخذت الاحظ صِغر حجم البيوت ، والأشجار ، والناس ، حتى ظننتُ نفسي في ليليبوت . كنت أخاف من أن أدوس كل شخص يمر من أمامي ، وكثيراً ما كنت أصرخ عليهم لكي يقفوا بعيداً عن طريقي، حتى انه كان الممكن أن أقع في مشاكل لاحصر لها بسبب وقاحتي.

وعندما وصلت إلى بيتي الذي أجبرت على السؤال عن موقعه، فتح لي الباب أحد الخدم ، فانحنيت لكي أدخل منه خوفاً من أن يرتطم رأسي به وأسرعتْ زوجتي لمعانقتي

والترحيب بعودتي فانحنيتُ حتى ركبتيها معتقداً انها لن تطال فمي لتقبيله إذا كنت منتصباً . أما ابنتي فقد ركعت أمامي لتنال بركتي ، ولكني لم أتمكن من رؤيتها إلى أن انتصبت واقفة ، لكوني كنت قد أمضيت مدة طويلة في الوقوف ورأسي وعيناي منتصبين إلى أعلى من ستين قدماً .

وبكلمة مختصرة : لقد تصرفتُ فترةً من الوقت تصرفاً غير معقول ، حتى ان الجميع أصبحوا يعتقدون نفس اعتقاد الربان عندما رآني لأول مرة ، وقرروا باني فقدت عقلي . وأنا اذكر ذلك كمَثَلٍ على قوة سيطرة العادات والأهواء .

وخلال وقت قصير توصلت إلى تفاهم تام مع عائلتي وأصدقائي ، لكن زوجتي مانعت في عودتي مرة ثانية إلى البحر . ولمّا كان قَدَري السيء يامر بذلك ، فإنها لم تتمكن من منعي ، لكنّي هنا أود أن أنهي الجزء الثاني من قصة رحلاتي المشؤومة .


قصص للناشئة
جلفر
مكتبة المعارف